
جانفي 2017

طرائف و غرائب
في عالم الإنشاد

قطب من أقطاب مدرسة " التتابع " يتذكر؛ الشيخ محمد أمين الترمذي

تقديم : حمدون طه.
تعريف الشخصية : الأستاذ محمد علي بحري.
مراجعة و تدقيق : جهاز نبض الضوء للخدمات الإنشادية.
تصميم و تنسيق الصفحات : عبد الرزاق أنفو.

العنوان : طرائف و غرائب في عالم الإنشاد.
إعداد : الشيخ " محمد أمين الترمذي ".
تقديم : حمدون طه.
تعريف الشخصية : الأستاذ " محمد علي بجري ".
مراجعة و تدقيق : جهاز نبض الضوء للخدمات الإنشاديّة.
تصميم الغلاف و تنسيق الصفحات : عبد الرزاق أنفو.
تاريخ : جانفي 2017.
رعاية إلكترونية : حرّة.

هذا الكتاب : نُطلّ عليكم باستهلالتنا هذه و السّرور يملأ قلوبنا بهذا المولود الثاني لشيخنا الكريم - بارك الله في عمره و عمله - الشيخ المنشد " محمد أمين الترمذيّ "، صاحب هذا المؤلَّف " طرائف و غرائب في عالم الإنشاد "، فالحمد لله على أن هدانا و وفّقنا لكي نكون ضمن فريقٍ مبارك يحذوه حبّ فعل الخير في إنجاز هذا الكتاب، الذي جمع بين طيّاته قصصاً و مُلحاً و طرائف في غايةً الرّوعة من حيث المبنى و المعنى، و قد جاءت في شكل مقالات قصصيّة موجزة بعناوين مشوّقة تدعوك للاستمتاع بمطالعتها؛ كانت قد حصلت للشيخ في مسيرته الإنشادية مُذ كان شابًّا بمفرده؛ أو رفقة فرقته.

إهداء

إلى الذين يؤمنون بقيمة الأثر الذي يمكن أن يتركه الإنشاديّ للآخرين ...

إلى الذين يعتقدون أنّه بإمكانهم الإستفادة من تجارب السّابقين ...

بارك الله فيكم جميعا و تقبّل منّا و منكم صالح الأعمال.

فهرس الكتاب

مقدّمة

بسم الله؛ و الحمد لله وحده و الصّلاة و السّلام على من لا نبيّ بعده و على من تبعه و صدّقه و استنّ سنّته، صلاةً كما وجبت له من ربّ كريم، و لِلّه الحمد و المنّة و الفضل كلّه، حمداً واجباً علينا و كما ينبغي أن يكون، لجلال وجهه الكريم، و عظيم سلطانه القديم، و نعوذ به سبحانه من شرور الأنفس و من الشيطان الرّجيم.

أمّا بعد :

نُطلّ عليكم باستهلالتنا هذه و السّرور يملأ قلوبنا بهذا المولود الثاني لشيخنا الكريم - بارك الله في عمره و عمله - الشيخ المنشد " محمد أمين الترمذيّ "، مؤلّف " طرائف و غرائب في عالم الإنشاد "، فالحمد لله على أن هدانا و وفّقنا لكي نكون ضمن فريقٍ مبارك يحذوه حبّ فعل الخير في إنجاز هذا الكتاب، الذي جمع بين طيّاته قصصاً و مُلحاً و طرائف في غايةً الرّوعة من حيث المبنى و المعنى، و قد جاءت في شكل مقالات قصصيّة موجزة بعناوين مشوّقة تدعوك للاستمتاع بمطالعتها؛ كانت قد حصلت للشّيخ في مسيرته الإنشاديّة مُذ كان شابًّا بمفرده؛ أو رفقة فرقته.

هي خبايا موشّحة و مرصّعة بالعجائب و الغرائب أحيانا و الطّرفة في أحايين أخرى، و من جهة ثانية أيضا؛ هي وعي جيّد بمفهوم " علوّ الهمّة " و " التّضحية في سبيل تكريس الفنّ الملتزم "؛ و ترسيخ معانيه مهما كانت الظروف أو صعبت الأحوال؛ من خلال مواقف و حوادث منها ما كان للنّفس - بتوفيق الله - و الإرادة و حسنُ التصرّف، و منها ما كان بالرّعاية الإلهيّة المحضة و المطلقة دون أيّ سبب يُذكر.

حتماً ستأخذ دروساً ثمينة و خبراتٍ في الحياة عموماً و في الإنشاد على وجه الخصوص، و لْيَقِس الخائض في الإنشاد أو " المنشد المبتدئ " ما يواجهه و يعايشه و يتعرّض له في عصرنا هذا في ظلّ التكنولوجيا و التطوّر و تغيّر عقليّات البشر؛ إذ ليس له من خيارٍ إلاّ التغلّب على مضامين تلك المواقف الصّعبة التي قد يحصل أن يلاقيها و يواصل الدّرب بكل ما أوتي من قوّة و إصرار و عزيمة؛ فتكون أنموذجاً مستمدّا من الواقع المعاش؛ مؤكدا لِتلكُم المفاهيم التي ذكرنا .

إني أدعوكم لاكتشاف هذا المكنون من نفيس المعاني؛ و عظيم القيم؛ و نقاء الجوهر؛ و جمال البساطة التي اكتنفت ذلك الزمان بأولائكم الناس الذين سخّروا أنفسهم كلّها للإنشاد، حيث كانت الرّسالة النّبيلة في خدمة الدّين من هذا الباب (الإنشاد)، هي الأسمى و الأرقى، و قد صاحب ذلك النيّة الحسنة بعمل طيّب فدحروا العناء، و وافق الإخلاصُ لله تلك النيّة الطيّبة فغاب الرّياء، و لمّا اجتمعت النيّة و الإخلاص و العمل جاء الجزاء فما كان هباء.

حمدون طه جانفي 2017

من هو الشيخ " محمّد أمين الترمذيّ " ؟

هو فنّان عريق، و منشدٌ عظيم، و قارئ للقرآن الكريم، و مُلحنٌ متميزٌ متفرّد، له إبداعه التّلحيني، و صناعتُه المرموقة الفاخرة، التي لها مُبَوءٌ عظيم بين عروش الملحنين الكبار، طبعاً هذه ليست جُملاً قلتها على سبيل المجاملة، أو للوصف الإنشائيّ؛ أو لمرام آخَرْ، فالأستاذ أجلُّ و أعظمُ من ذلك و بكثير، و هو غنيٌّ بالذّكر و بالصّيت عند أرباب هذه الصّنعة و بما لا يؤثر في مكانته الفنيّة والتلحينيّة مدحٌ أو قدح، و يدرك حقيقة هذا و شأنه كلّ من له أدنى دراية بأصول الموسيقى و الفنّ و قواعد التّأليف و التّلحين.

ألحانه كثيرة غزيرة، تتّسم بالتلّوّن و التّنوّع، و هي أيضاً ثريّة جداً بالأفكار و بالصُّور و بالتّعابير، تمتاز إلى جانب ذلك كلّه بالإحساس العميق، و بالبناء المتين، و بالسّبك القويّ، بحيث تتلاحم بدنيّاتها مع خاناتها ضمن انتقالات لحنيّة بديعة، و بكلّ تناغم و تناسب، بأدقّ رسمٍ، و بأبدع إحكام.

ألحانه مشرقة، و واضحة المعالم، لا لُبسَ فيها و لا إبهام، تمتاز بجملها و بصياغتها و بعُرَبها و بقفلاتها على الطِّرز البنائيّ القديم، و بالنّكهة المعتقة الصّافية القرقف، النّقيّة المصرف؛ و بالجملة فهي ممّا تدخل و تنطوي في لُبّ ألحان الموسيقى الشرقيّة الكلاسيكيّة.

صرف الأستاذ " محمّد أمين " جُلَّ اهتمامه، بملء دنانه، من صهباء المديح و الإنشاد، و الإلهيّات الدّينيّة والرّوحيّة؛ و بالرّغم من أنّ اتجاهها دينيّ محضّ؛ إلاّ أنّ أثوابها تندرج ضمن أقمشة و خامات ألحان الموسيقى الشرقيّة.

شخصيّة الملحّن الأستاذ " أمين التّرمذيّ " هي شخصيّة فنيّة فريدة من نوعها و متميِّزة جدّا في عالم صناعة التلاحين و أسواقها، ألحانه مدعاة لكلّ دارس، و قبلة لكلّ طالب و باحث، أن يوليها وجهته، و أن يتعهّدها بالتمحيص؛ بالمدارسة، و بالتعمّق و بالتوغّل، فهي ليست مُجرّد ألحان بُثَّت، أو دندنات قيلت، أو عبارة عن جمل لحنيّة عشوائيّة صعدت و نزلت، تقدّمت و تأخّرت، إنّما هي سبكٌ ذهبيّ جميل، معتنى به غاية العناية، لها وقع عظيم على الإحساس الإنسانيّ، فالشُّعور الوجدانيّ.

ممّا يحزُّ في النّفس، و يؤلم الضمير و العقل، أنّ الأستاذ الملحّن " أمين التِّرمذي " لم يأخذ حقَّه المطلوب، و لم يعط مقداره الحقيقيّ، و مكانته المرموقة التي تليق به في سجلّ و ديوان الملحّنين الجهابذة؛ و خصوصاً بين المنشدين و المغنين في " حلب "، و لعلّ الأسباب معروفة للجميع، منها ما هو نفسيّ دنيء كحسد و غيرة و حقد؛ و منها ما هو تجاريّ مبتذل لأنّ ألحان الأستاذ لا تتماشى مع الجمل التّجاريّة و المسرحيّة الإستعراضيّة، و منها ما هو جهل بالموسيقى و بالألحان من قبل الفنّانين و المنشدين.

على كلّ فقد قضت سُنَنُ التّاريخ أنّها لا تذكر إلاّ من كان مخلصاً لفنه، سامياً في رسالته، صادقاً في مبادئه، لا يسأل عن شهرة، و لا يلوي على صيت أو ذِكْر، و إنّما دأبُه و ديدنُه هو التّأليفُ الصّحيح، و قولة الحقّ، و إنشاء كلّ ما هو سليم

و ثريّ، يساهم في إسعاد النّفس البشريّة، و المعاني الإنسانيّة و يرتقي معها نحو الأعلى فالأسمى.

من أشهر ألحان الأستاذ الشيخ " محمد أمين التِّرمذي "، و التي تركت في النُّفوس آثاراً خالدة؛ لا تنقضي عجائبها، التي تزَيَّن فيها جِيدُ الدّهر، و تغنّى بها كُلُّ ألمعيّ حُرّ، و أذكرُ منها على سبيل الذِّكر لا الحصر التوشيح الدّيني " أنا الفقير إليك يا ربّ " من مقام " الهزام "؛ و هو لحن عظيم، و دُرٌّ نظيم، تطابق فيه اللّحن مع المبنى، و تلاحما كتناغمِ قيْسٍ لُبنى، بخشوع جليل، و عظمة و هيبة قلّ وجودها في الألحان، و عزّ نظيرها عند أهل المَثّان، و هو ممّا لا يُمَلُّ سماعُه، أو يُسئمُ أداؤه؛ و منها توشيح " بالله غرّد يا حمام " من مقام " جهاركاه "؛ و هو من بدائع تلاحين المولد، العريقة المَحْتد، التي زخمت بكلّ صور البِشرِ و الفرح، و تهلّلت أساريرها بكلّ صور الرّوعة و الجمال، و آيات الحركة و النّشاط و النّشوة فالطَّرب؛ و منها توشيح " ودّيلي سلامي يا رايح للحرم " مقام " حجاز كار كردي "؛ و هو أيضا من بدائع تلاحين هذا المقام ضمن التواشيح و الأناشيد الدّينيّة، التي لم يكن يخل محفل دينيّ من إنشادها، أو الإتيان على ذكرها، فهي ممّا اشتهر أو ذاع، و ردّدها الخاصّ و العامّ، و المبتدئ و المنتهي، التي جرت في المديح و خاصّة في طقوس الحجّ و الحُجّاج مجرى المَثْل، منها " قسماً بالله ربّ العالمين "، " من أنزل الأمطار ؟ "، " هلّيت يا ربيع هلّ هلالك "، " ضاءت بالهادي لنا ظلم "، " فوق المنابر يا بلابل غرّدي "، " صلاة العبد مناجاة "؛ و هذه و إن كانت أفكارها اللّحنيّة مستقاة من آهات لحن " عندما يأتي المساء "؛ إلاّ أنّها تخدم غرض النّظم و تسوقه مساقاً جيّداً، و ترويه رواية مستحسنة مستملحة، و تسرده سرداً لذيذاً إلى آخر ما هنالك من ألحان الأستاذ الرائعة، و البديعة الإنشاء و التّأليف.

و قد امتاز الشّيخ " محمّد أمين الترمذيّ " بمحافظته الدّقيقة على مساره الفنيّ الدّينيّ، و التزامه الجادّ الصّارم حيال ذلك، فلم يخرج في التلحين عن ربقة المديح و الإنشاد و الثّناء على الله سبحانه و تعالى فيما أعلم، و لم ينصرف إلى التّلحين الغنائيّ الدّنيويّ، بالرغم من غنائه و إنشاده لكثير من الموشحات الغزليّة والأندلسيّة إلاّ أنّه بقي محافظاً ضمن إطار الدّين الإسلاميّ و ضوابطه و التزاماته.

ختاماً أقول أنّ كثيراً من المنشدين الحلبيّين أصلحهم الله و هداهم، إشتغلوا بغناء و إنشاد كلّ ما هو سطحيّ، ساذج و بسيط السّياق و الأفكار من الألحان؛ فرحين باستجلابهم لكثير من الألحان الشامية و المصريّة و غيرها، و تاركين موروث و كنوز الأستاذ الشّيخ " محمّد أمين الترمذيّ "، التي فيها ما يُغني و يقني، و بما لا يفوّت و لا يترك؛ الذي هو جدير بكلّ إهتمام و التفات، و حرص و انشغال، و قد انصرفوا عن الثّمين المعزوز، إلى الرّخيص المبزوز.

أمدّ الله في عمر الفنّان الأستاذ الشيخ " محمّد أمين الترمذيّ "، فأبقاه لنا في حياتنا صرحاً شامخاً رفيعاًمن صروح الفنّ و التّلحين كما عهدناه و عرفناه.

الأستاذ / محمّد علي بحري

السّيرة الذاتيّة للشّيخ " أبي محمود " كما يرويها بنفسه

وُلدت في مدينة " حلب " عام 1945 م في حيّ من أحيائها القديمة " سراي إسماعيل باشا "؛ و إن كان يبدو اسم والٍ تركيّ؛ إلاّ أنّه كان بيتاً عربيّا كبيراً يشبه بيوت مسلسل " باب الحارة ".

كان فيه غرف كثيرة، لأنّ جدّي كان عنده 4 نساء عدا اللّواتي أخذهنّ الموت أو طُلّقن؛ و كان المذياع حديثا في بيتنا و كانت تبثّ منه أغاني العمالقة القدماء الذين لا مجال لذكرهم لكثرتهم فابتدأت حياتي الفنيّة بالدّسم؛ كما أنّ الوالد رحمه الله كان يصدح بصوته لألحان العمالقة أمثال " محمّد عبد الوهّاب " و " عبد المطلب " و " كارم محمود ".

كانت ذاكرتي تختزن كلّ ذلك دون علمي؛ كما أنّ أصحاب من السّمّيعة كان صديقهم المطرب الكبير " أسعد سالم " رحمه الله، و كان يلقّب " ملك الدّور "، فكان أحياناً يحضر معه فرقته الموسيقيّة، و يأتي أصحاب الوالد و يبدأ الغناء حتى ساعة متأخّرة من اللّيل و هو يقدّم أجمل ما عنده من فنون الطرب، و هم يقدّمون أجمل ما عندهم من عبارات الإستحسان، و أنا أقوم على خدمتهم بتقديم الشّاي و القطايف و الفاكهة و الذاكرة تخزّن دون علمي و أنا دون البلوغ.

أمّا بالنّسبة للشارع؛ فقد كان يسكن في حيّنا ملك الموّال الزجليّ " محمّد أبو سلمو "؛ و قد أصبحت الآن بين ملكين؛ ملك الدّور " أسعد سالم " و ملك الموّال " محمّد أبو سلمو "، فلا بدّ لك في مثل هذه الحالة و لا مهرب إلاّ أن تتأثر و تربّي أذنك على الشّيء الرّاقي، فكنت أرى " أبا سلمو " مع فرقته الموسيقيّة يمرّون أمامي مع آلاتهم الموسيقيّة فأتبعهم حتى يدخلوا ذلك البيت العربيّ فأجلس في ساحة البيت المكشوفة و هم يجلسون على منصّة مرتفعة و يبدؤون بإصلاح أوتارهم و يجتمع النّاس؛ و يبدأ الغناء و تهيم الأرواح بسحر الطّرب حتى يغلب عليّ النّعاس؛ فأعود و أنا نشوان و أنام مع تلك النّشوة.

من الذين سمعتهم في صغري المطرب الشّعبيّ " محمّد المحبك "، و لعلّه ابن الفنّان و الملحّن " صالح المحبك "؛ كما كنت أستمع لزميل لنا في الدّراسة؛ مع رفاقي في الحيّ؛ و هو يقلّد المقرئ " عبد الباسط عبد الصّمد "، فأقول في نفسي مردّدا : " هنيئاً له ... و كيف لي أن أمتلك صوتاً مثله ؟ ".

كنّا نعجب من موهبته و هو يتباهى علينا بتلك الموهبة الرّبانيّة؛ و مرّت الأيّام و لم يساعده أحد في تنمية و رعاية موهبته، فانتهت تلك الموهبة و ماتت و كأنّ شيئا لم يكن.

لذلك على الأهل و المعلّمين إذا رأوا موهبة ما عند طفل أن يشجّعوه؛ و يلفتوا نظره إلى أهميّة موهبته و يرشدوه إلى طريقة تنميتها و يضربوا له مثلاً بأحد المشاهير الذين أبدعوا في مثل تلك الموهبة؛ فيقولون له مثلا : " لو أنت واصلت في تنمية موهبتك لأصبحت مثل فلان ".

و تمضي الأيّام؛ فإذا بصوت المطرب " عبد الحليم حافظ " يطلّ علينا من خلال المذياع الذي كان أعجوبة في ذلك

العصر، حتى أنّ بعض النّاس ظنّ أنّ فيه جنّا؛ إذ كيف تخرج الأغاني و الأصوات من صندوق خشبيّ صغير ؟؟؟.

الحمد لله لم أكن من أولئك النّفر.

و لشدّة إعجابي بصوت و أغاني " عبد الحليم "؛ اشتريت كتيّباً صغيراً يحتوي على أغانيه و طبلة، فأفتح الكتاب على إحدى الأغاني و أبدأ الغناء و أنا أنقر على تلك الطبلة لضبط اللّحن، و تمرّ والدتي فتنظر إليّ و أنا على ذلك الحال من الإنسجام مع اللّحن فأنظر في عينيها مزيجاً من الإستغراب و الإعجاب و الضّحك، و أنا مسترسل غير عابئ بشيء.

كانت هذه المرحلة تهيئة ربّانيّة لأمر آخر أجلّ و أسمى.

و ذات يوم ذهبت لزيارة قريب لي و كنت أبلغ 13 سنة من عمري تقريباً؛ أمضيت عندهم النّهار؛ و لمّا أمسى المساء قال لي : " أنا ذاهب إلى أحد المساجد حيث الإحتفال بذكرى الإسراء و المعراج "، و كنت لا أعرف شيئاً عن هذه الإحتفالات، فذهبت معه و كان عمره هو ما يقارب 40 عاما؛ فجلس مع مجموعة؛ ثمّ تبيّن لي بعد قليل أنه يغنّي، و لكن الكلمات كانت تخاطب الله و ليس امرأة كما كنت أسمع من المطرب " عبد الحليم "؛ و بدأت تلك المجموعة تنشد ذاكرة حادثة " الإسراء و المعراج "، و أنا في غاية السّعادة.

أحسست بروحانيّة سماويّة لم أحسّ بها في أغاني " عبد الحليم ".

أحسست أني قريب من الله؛ و أنّ عنده الأمان و الطمأنينة، فقلت في نفسي : " هذا هو الفنّ الحقيقيّ الذي يجب أن أسير فيه من الآن فصاعدا ".

موقف غريب

تمرّ على المنشدين في مسيرتهم الإنشاديّة أحياناً مواقف طريفة، بعضها قد يكون مضحكا، و البعض الآخر قد يكون مؤلما؛ و هذه إحداها.

لقيني صديق من أحد أرياف " حلب "، لمّا كنت شابّا، في أحد الشّوارع، فقال : " أريد أن تزورني في القرية، لتنشد لي في حفل مولد بمناسبة شرائي مزرعة، في يوم كذا، و أحضر معك كيساً لأملأه لك من محصول الأرض، و سأدفع لك مبلغ كذا ".

و سافرت إليه في الموعد المقرّر، فوجدته ينتظرني على جانب الطريق و معه حمار؛ قال : " إركب حتى لا تتعب "، بعد مدّة وصلنا إلى المزرعة و أدخلني البيت؛ قلت : " أين النّاس ؟ ".

قال : " لا عليك؛ سيأتون، فابدأ الآن ".

بدأت الإنشاد؛ تركني و خرج و أنا أنشد لنفسي، و هو يدخل و يخرج؛ و كلّما سألته أن أين المدعوّين ؟ يقول سيأتون، و لم يأت أحد، و أنا في حالة لا أحسَد عليها، إذ أنشد للجدران؛ قلت له : " أنا مرتبط بحفل عرس بعد قليل؛ ثمّ إنّ المكان منقطع، فينبغي أن أعود للمدينة لألتحق بالفرقة في العرس " - و كنت قد أنشدت مدّة غير يسيرة من الوقت - ، فأوصلني على الحمار إلى الطريق الرّئيس، و لم يملأ كيسي من الثمار، و لم يعطني المبلغ الذي وعدني به، بل قال : " غداً سأزورك و أدفع لك، و سأحضر لك من خير الأرض ".

وقفت أنتظر سيّارة توصلني، و مضى الوقت في الإنتظار، و دفعت أجرة السّيارة ذهاباً و إياباً من جيبي، و امتلأت بالغبار، و استحممت في بيتي، و وصلت العرس متأخّرا؛ و لم يأتيني الرّجل كما وعد.

الحمد لله على كلّ حال.

هروب مشرّف

إتّصل بي شخص مرموق، من أحد عشائر " الأردن "، في الثمانينيّات من القرن الماضي، و طلب أن نقيم له حفل عرسه أنا و فِرقتي؛ قلت له : " لي شرط واحد "، قال : " ما هو ؟ "؛ قلت : " ألاّ يكون هناك إطلاق رصاص، فإن حدث هذا نأخذ الأجرة و ننسحب ".

قال : " موافق ".

أقيمت صلاة العشاء في العراء، بعد أن نصبوا خيمة ضخمة، فقدّموني إماما، و كانوا هم بأعداد كبيرة، فقلت في نفسي : " ما شاء الله كلّهم مصلّون؛ إذن ستكون حفلتنا جميلة و منوّرة ".

ما كدنا نبدأ الأنشودة الأولى، و إذ بالمسدّسات تخرج و تشقّ سكون اللّيل بهديرها، و بعد إنهاء الأنشودة توقفنا قائلا لهم بلطف : " أحبّ أن أدلّكم على شيء أفضل من هذا - و تذكرت مأساتي في حلب - اللّيلة هي ليلة الجمعة، ليلة مباركة و الصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم مستحبّة و فيها الأجر العظيم "، فضحكوا و كأنّني رويت لهم نكتة، ثمّ قالوا : " توكّل على الله يا شيخ ".

تابعنا الإنشاد و تابعوا إطلاق الرّصاص؛ ثم أحضر أحدهم رشاشا - و أنا محظوظ دائما مع الرّشاشات و الرّصاص - ؛ و بدأ يرش في السّماء بكلّ ما أوتي من قوّة و عزم، و أنا و الفرقة نتابع هذا المشهد التراجيديّ، و ما عدنا نعرف ننشد لقوّة الصّوت، كما قال المثل : " جاء الطبل فغطّى على صوت النّايات ".

كانت تمرّ فوق رؤوسنا أسلاك كهربائيّة ذات توتّر عالٍ، قد مدّدتها الدّولة على أبراج حديديّة مرتفعة، فقال النّاس لهذا الذي يطلق النّار : " يا أبا فلان تجنّب الرّش باتجاه كوابل الكهرباء؛ فقد تسقط علينا فتقتلنا "، قال : " أنا أريدها أن تسقط "، و صار يجتهد أكثر في الرّماية، فلمّا رأيت أنّ الأمر جدّ لا هزل فيه؛ تركت الإنشاد و توجهت مع الفرقة إلى السّيارة، و لحق بنا العريس و أبوه و عمّه و باقي الأقارب أن إلى أين ؟.

قلت : " منذ البداية اشترطت على العريس - و أشرت إليه - ألاّ يكون هناك إطلاق نار و وافق، نحن لم نخل بالشرط، و أنتم ؟، نحن لا نستطيع أن نمنع الناس من هذا لذلك نستأذنكم، و تركنا أجهزتنا الصّوتيّة؛ و هربنا لانلوي على شيء، و تركنا الأجرة كذلك.

في الغد مررت و أخذت مكبّرات الصّوت؛ أمّا الأجرة فلم أحصّلها إلا بعد ربع قرن أو ربما أكثر.

عمليّة انتقاميّة

ذهبت إلى حفل عرس مع فرقتي مُقام في إحدى صالات مدينة " عمّان "، و سارت الأمور على أجمل ما يكون، فبينما نحن في غمرة السّعادة و السّرور؛ تعالت الأصوات و الصّيحات من قِبل باب القاعة، و تراكض الناس من داخل المكان إلى الخارج ليستطلعوا الأمر، و إذا بشخص من الخارج يقذف قنبلة مسيلة للدّموع على مدخل الصّالة، ليفسد على أهل العرس عرسهم، و ينغّص عليهم لأنهم لم يزوّجوه ابنتهم، بل زوّجوها للذي ننشد له.

وامتلات الصّالة بالدّخان المسيل للدّموع المسبّب للسّعال و ضيق التنفّس، و لمّا شعرنا بهذا؛ وضعنا المناديل على أنوفنا لنخفّف من أثر الدّخان، و هرب النّاس من القاعة، و لم يبق تقريباً إلاّ نحن لأنّنا سنجمع أغراضنا و أجهزتنا، كذلك حتى نأخذ أتعابنا مقابل النشيد.

جئت إلى الشّخص المعنيّ بالأمر و قلت : " من فضلك اعطنا أتعاب الفِرقة؛ و كما ترى فإنّه لم يبق أحد من المدعوّين؛ كلّهم ذهبوا ".

قال لي : " خيرها بغيرها "، يقصد أنّه لن يدفع لنا، و ربما في المستقبل دعانا إلى حفل آخر يعوّضنا عن هذا الحفل، فقلت : " ما ذنبنا نحن في هذا الذي حدث ؟، فنحن جئنا و أنشدنا، و هذه المشكلة لسنا نحن من تسبّب بها، فلا بدّ من الدّفع، فإنّ الذين معي ينتظرون إكراميّاتهم ".

فلمّا رأى تصميمنا على تقاضي الأجر قال : " إذن أعيدوا تركيب أجهزتكم و أنشدوا ثانية "؛ قلت : " حسنا سنظلّ ننشد حتى تقول لنا كفى ".

أعدنا تركيب الأجهزة و أنشدنا، لكن لا نحن مسرورون و لا هو كذلك، لم تطاوعه نفسه أن يدفع لنا بأريحيّة أو بكرم، بل أراد استنزافنا حتى الرّمق الأخير، و دفع الأجرة مكرهاً لا مختارا.

لله في خلقه شؤون.

... و أنقذتنا كومة رمل

دُعيت عام 1989 حيث كنت أقيم في مدينة " عمّان " و ما زلت؛ إلى مهرجان خطابي لأحد المرشحين للنّيابة، في غور " الأردن "، و المسافة تبعد عن " عمّان " بمقدار ساعة و نصف بالسّيارة تقريبا، و انطلقت بسيّارتي، و معي المرشح للنيابة، و بعض المنشدين، و أجهزتنا الصّوتية؛ مسرعين للمكان لأنّنا تأخرنا عن الموعد.

بدأت انحدارات غور " الأردن " الذي يُعتبر أخفض منطقة على اليابسة في العالم بلا أدنى شكّ، و الطريق بالإضافة إلى قوّة منحدراته فإنه كثير المنعطفات، قطعنا ثلاثة أرباعها و بقي ربعها الأخير؛ و عند أحدها ضغطت على مكابح السّيارة ذات الحمل الثقيل، لكنّ المكابح لم تعمل، و بهذا أصبحت السّيارة دون مكابح، و سرعتها تزيد باستمرار.

شعر أصحابي بفداحة الخطب، و توقعوا حدوث الكارثة، و تعالت أصواتهم بالدّعاء أن يسلّمنا الله من موت محقّق؛ فعلى يمين الطريق وادٍ سحيق، و على اليسار جبل صخريّ، فإذا سقطنا في الوادي هلكنا، و إذا نزعنا إلى الجبل الصخريّ هلكنا، و أنا أمسك بمقود السّيارة، أوجّهه يمينا فتذهب السّيارة شمالا، و أوجّهه شمالا فتذهب يمينا، فما العمل ؟.

لا شيء سوى لطف الله، و يأتي المنعطف تلو المنعطف، و كلّنا في حالة لا نحسد عليها، ثم جاء منعطف حادّ فانعطفت السّيارة بقوّة أدّت إلى تطاير الأجهزة الصّوتيّة من النوافذ الخلفيّة للسّيارة، كلّ هذا لا يهمّ، مقابل أن تسلم بنفسك.

وضع كلّ واحد منّا جميع الإحتمالات، منها السّقوط في الوادي، و منها الإصطدام بالجبل، و كانت فرصة النّجاة احتمالاً ضعيفاً جدّا بالنسبة للوضع الذي نحن فيه، و الأمل معقود بالله أنه قادر على إنقاذنا رغم خطورة الموقف.

لمّا انعطفت السّيارة في المنعطف الأخير؛ سقطت في أخدود على يسار الطريق، و بالطبع هو أخفض من هذا الأخير، و مالت إلى اليسار لتنقلب فردّها جدار الأخدود إلى جهة اليمين، ثمّ مالت إلى اليمين لتنقلب فردّها جدار الأخدود إلى اليسار، و نحن فيها نتحرّك بحركتها لا حول لنا و لا طول، مسلوبو الإرادة بمعنى الكلمة، و بقيت على هذا المنوال تضرب ذات اليمين و ذات الشمال و نحن ننتظر مصيرنا؛ و إذ بكومة رمل ضخمة في نهاية الأخدود تنتظرنا، صدمتها السّيارة بقوّة اندفاعها، و إذ بهذه الكومة تمسك السّيارة مع كلّ عنفوانها، و كأنّها مغناطيس قويّ ألقيت عليه مسماراً فالتصق به و لم يتزحزح البتّة.

سبحانك يا إلهي ما أعظم شأنك ؟!.

حمدنا الله تعالى على فضله العظيم، و لطفه الكبير الذي حفّنا به، و عنايته الجليلة التي أحاطت بنا، و هنّأنا بعضنا بالسّلامة؛ لكن جُرحت يد النائب، المريض بالسكريّ، و يتأخر تخثر الدّم عنده بسبب ذلك، و أصيبت رؤوس المنشدين بكدمات نتيجة تأرجّحات السّيّارة يمنة و يسرة داخل الأخدود، بالنّسبة لي فقد خرجت سليما معافى.

أوّلاً بسبب الرّعاية الإلهيّة؛ و ثانياً لأني كنت أضع حزام الأمان الذي لم يكن يسمح لي أن أصطدم بأيّ شيء في السّيارة، و هنا انتهى المشهد الأوّل من الحادث ليبدأ المشهد الثاني.

حمدنا الله تعالى على نجاتنا من موت محقق، و تنفسنا الصّعداء، و صرنا نبحث عمّا لحق بنا من أضرار، مرّت سيّارة فأخذت النائب لإسعافه في أقرب مركز طبيّ، و أعلمت الشرطة بالحادث فجاءت لتكتب تقريرها خوفاً من أن تكون هناك محاولة اغتيال للنائب، و أخذت المنشدين لأخذ أقوالهم في أقرب مركز أمنيّ، و تركوني عند السّيارة لألملم ما تناثر منها، و أسعى بطريقة ما لنقلها إلى " عمّان " لإصلاحها، لأنّها تضرّرت كثيرا.

رحت أجمع الأشياء التي تناثرت منها محاولاً جمع ما تناثر من أفكاري؛ فإصلاح السّيارة و إصلاح الأجهزة الصّوتيّة يحتاج لمبلغ كبير، و قد وعدني النائب قبل أن يغادر بأن يتّصل بصديق له كي يرسل لي رافعة تحمل السّيارة إلى " عمّان ".

بقيت هناك أنتظر مجيء الرّافعة؛ و طال الأمر، بطبيعة الحال فقد ألغي الحفل الذي كنّا ذاهبين إليه بسبب ما جرى؛ و هبط الظلام فصلّيت المغرب، و بقيت قابعاً في السّيارة أنتظر الفرج، و اشتدّت العتمة، و قلّت السّيارات المارّة شيئاً فشيئا و أنا في واد بين جبلين، و خيّم صمت كصمت القبور، إذا رفعت يدك لا تراها، لا طعام و لا شراب، لم تكن هذه الهواتف المحمولة موجودة في تلك الأيّام، فأنت الآن في عزلة عن العالم.

إذا مرّت بعض السّيارات ربما خفّفت من سرعتها و حدّقت في المشهد ثم تابعت المسير؛ و أنا قابع في مقعدي أنتظر المصير، قلت في نفسي : " أجعلها فرصة لتذكر القبر و وحشته و المكوث فيه منفردا "؛ كنت متوجّها بقلبي إلى الله، معتقداً أنّ لله حكماً في كلّ شيء، مستسلماً لقضائه و قدره، و راضياً تمام الرّضى بما فعل.

بعد طول انتظار مرّت سيّارتان تجاوزتاني ثم رجعتا لأمر يريده الله عزّ و جلّ، و نزل منها عدّة أشخاص أحبّوا استطلاع الأمر؛ وجّهوا أضواءهم تجاه السّيارة فرأوني بداخلها، فسلّموا عليّ و هنّؤوني على السّلامة، لقد فهموا كلّ ما جرى معنا، عملهم صيانة السّيارات حيث بدّلوا العجلة التّالفة، و رفعوا جناح السّيارة الأماميّ عن العجلة التي كان ضاغطا عليها، و صبّوا ماء في خزان الماء، و زيتا في خزان الزّيت، كلّ ذلك كان متوفّرا معهم، و أداروا محرّك السّيارة فاشتغل، و أزالوا كومات التراب من حولها و أخرجوها إلى الطريق الإسفلتيّ، تمّ كلّ هذا بمنتهى السّرعة و النشاط و أنا واقف أتفرّج عليهم، ثم قالوا : " هذه اللّيلة سنستضيفك عندنا، مزرعتنا على مسافة كيلومترات من هنا ".

ثمّ كلّفوا أحدهم بقيادة سيّارتي؛ و وصلنا بيتهم ضمن بستان، فقالوا هذا الهاتف الأرضيّ فاتّصل بعيالك ليطمّئنوا عليك، ثمّ صلّيت العشاء معهم و تعشّينا و سهرنا و جرى التّعارف؛ و كأنّنا نعرف بعضنا من زمن بعيد، لقد قاموا بواجب الضّيافة على أكمل وجه، و في اليوم الموالي ودّعتهم بعد أن أخذوا عنواني في " عمّان " لزيارتي.

توجّهت بالسّيّارة إلى الفنيّ الذي أتعامل معه للقيام بالصّيانة المطلوبة، و اطمأننت على أصحابي الذين كانوا معي فاطمأنوا عليّ؛ و بعد بضعة أيّام جاء وفد من أولئك الذين استضافوني و دعوني إلى عرس أخ لهم في مزرعتهم مع المنشدين

الذين كانوا معي، و أرسلوا سيّارة تأخذنا لأنّ سيّارتي كانت ما تزال في الصّيانة، أحيينا لهم حفل العرس فسرّوا كثيرا، ثمّ قدّموا العشاء و بتنا عندهم؛ و في اليوم الموالي؛ ذبحوا الذّبائح، و جاء مئات المدعوّين؛ و تغدّينا؛ ثم أعادونا إلى العاصمة معزّزين مكرّمين، و بقيت الصّداقة مستمرّة، و زالت آثار تلك الحادثة؛ فالحمد لله على منّه و كرمه.

تدخّل من نوع خاصّ

دُعيت إلى " المغرب " قبل عدّة سنوات للمشاركة في أمسيات رمضانيّة، في مدينتي " طنجة " و " تطوان "؛ و كانت الفِرق المشاركة كلّها مغربيّة، باستثناء مطرب من إحدى الدّول العربيّة، يغني اللّون الدّينيّ إضافة للونه الطربيّ، و أنا العبد لله.

وُضعت الإعلانات في شوارع " تطوان "، و عليها مواعيد الحفلات و أماكنها و أسماء الفِرق؛ و وضعوا في أعلى الإعلان صورة للمطرب و بجانبها صورتي، و إسمينا مع صيغة التّبجيل لكلينا؛ فلمّا رأى ذلك المطرب صورتي بجانب صورته انزعج و امتعض، و طلب من منظّمي الحفل أن يستبدلوا تلك الإعلانات بأخرى تكون فيها صورته منفردة في الأعلى؛ و تكون صورتي في مكان أخفض.

طيلة مسيرتي الفنيّة لم أنظر مطلقاً إلى مثل هذه الأمور، التي كان كثير من المنشدين يولونها أهميّة بالغة على غرار المطربين، قال المنظمون للمطرب : " مثلما أنت فنّان دنيويّ؛ فإنّه فنّان دينيّ، و كما أنت معروف عند شريحة من النّاس؛ فإنّه معروف عند شريحة أخرى كذلك، فقال : " إذا لم تنفذوا طلبي فإني سوف أعود إلى بلدي "، فقالوا له : " لن نغيّر الإعلان، و إذا صمّمت على العودة فأنت حرّ "، و أوصلوه إلى المطار و أخبروني أنّه بكى عند المغادرة؛ و دعوا مطرباً آخر من داخل المغرب ليحلّ مكانه، و جاء موعد حفلي - و عادة يكون بعد صلاة التراويح - ؛ و إذا بحنجرتي يصيبها التهاب شديد؛ و المعروف عند أهل الفنّ أن الصّوت يعجز عن الأداء في مثل هذه الحالة.

كيف العمل يا إلهي ؟؛ و الحفل بعد ساعات قليلة ؟؛ و أنا دعيت من دولة إلى دولة أخرى، و النّاس قد سمعوا بالإسم الآن، و منهم من سمع به من قبل، و يمنّون النفس بسماع لون جديد مشرقيّ إضافة إلى لونهم المغربيّ؛ و قد أحضروا لي فرقة إنشاد كبيرة قبل أيّام، درّبتها على ما سننشده، و منها أناشيد نظمت كلماتها، و وضعت لها ألحاناً جديدة، و ذكرت في تلك الأناشيد و القصائد أسماء المدن، و فضائل رمضان و غير ذلك.

هذا مطلع قصيدة عن مدينة " طنجة " :

قد حدّثوا عن " طنجة " و بهاها — فهويتها من قبل أن ألقاها
ثم التقينا في مساء مقمر — فرأيتها في الحسن ليس تضاهى

أمّا قصيدة " تطوان " فمطلعها :

لاحت عليّ بسحرها " تطوان " — فتبارك الخلاّق و المنان
حسناء طول العام يبدو حسنها — و تكون أجمل إن أتى رمضان

هذه القصائد لها تكملات مهمّة و تُلقى بشكل فرديّ؛ كنت متيقّنا أني لن أقدر على إعطاء الصّورة الحقيقيّة لأدائي بسبب ما أنا فيه من المرض؛ ولجأت إلى الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه، سبحانه و تعالى.

كان هناك مسرح ضخم مبنيّ في العراء، و أمامه مدرّج حجريّ ملأته مئات العائلات، و أضيفت إليه كثير من المقاعد التي امتلأت عن آخرها، فكان الجمع بالآلاف؛ و أنا في غاية الكرب و الهمّ، هل أتقدّم إليهم قائلا : " أعذروني فإني مريض و لا أستطيع أن أنشد لكم ؟ ".

طبعاً لا أستطيع ذلك، قلت في نفسي : " سأنشد و هم بعد أن يسمعوني سيعذروني لا محالة ".

و بينما نحن في الكواليس قد جهّزنا أنفسنا للصّعود إلى خشبة المسرح؛ فإذا برياح شديدة تهبّ فجأة على الحاضرين؛ و التجهيزات و الدّيكورات، و تبع ذلك مطر غزير جعل الجمهور يغادر، فقال عريف الحفل بمكبّر الصّوت : " نظراً للحالة الجويّة؛ فقد تأجّل حفل الترمذيّ إلى بعد الغد ".

وقع هذا الخبر عليّ كما قال تعالى : " يا نار كوني برداً و سلاماً على إبراهيم "؛ و فرحت فرحاً عظيماً زال به كربي فالحمد لله.

و لمّا جاء موعد الحفل الثاني كان صوتي قد شفي تماما، و وفّقني الله و سُرّ الناس و سترني الله بستره فالحمد له على منّه و فضله.

لا تنم بعيداً عن منزلك

كنّا 3 أصحاب، قبل نصف قرن أو يزيد؛ كان صاحباي من طلاّب العلم الشرعيّ؛ و قد اتفقنا أن نذهب إلى إحدى القرى القريبة من " حلب "، للدّعوة إلى الله، و تعليم النّاس أمور دينهم.

قسّمنا المهامّ بيننا، فأحدهما يقوم بوعظهم، و الآخر يقوم بخطبة الجمعة، و أنا أنشد لهم لترقيق القلوب، و تهيئة النّفوس لتقبّل الموعظة.

سارت الأمور على خير ما يرام، و على أحسن ما يمكن أن يكون، بالمناسبة؛ لأهل الأرياف قلوباً صافية، على الفطرة، عرائك ليّنة، يتقبّلون الدّين بسرعة و بغير جدال.

و قد أكرمونا بكلّ ما يستطيعون جزاهم الله كلّ خير؛ فبعد أن سهرنا و أنشدنا؛ إستأذنا في العودة، فرفضوا مصرّين على المبيت عندهم، قلنا : " إذا كان و لا بدّ؛ فإننا سننام في المسجد "، و أطفأنا الأضواء و خلدنا إلى النّوم.

ما كدنا نغمض أجفاننا حتى هجمت علينا أسراب البعوض الجائعة تتغذّى على دمائنا؛ و نحن نضرب ذات اليمين و ذات الشمال لعلّها تكفّ أو تخاف، و لكن كلّما صددناها ازدادت شراسة و إقداما، لم نستطع النّوم، فقلنا : " نشعل الأضواء لعلّها تنصرف "، و لكن عبثاً ما قمنا به، فقلنا : " نصعد إلى سطح المسجد و ننام فربما لا تلحقنا "، و لكن كان على السّطح ما يكفي و زيادة، فاضطررنا إلى النزول ثانية لأنّ من بالدّاخل أرحم قليلا، و استسلمنا للأمر الواقع، متذكّرين نعمة الله علينا في " حلب "؛ و كيف كنا ننام قريري العيون و بملء الجفون، و حانت منّي التفاتة إلى أحد الشّيخين فلم أجده، بل وجدت سجّادة ملفوفة كأنها جذع نخلة، فتأكّدت أنّ الشيخ قد لفّها حوله كشرنقة دودة الحرير، و إني متأكّد أنها مليئة بالغبار، و أنها سترفع درجة حرارة جسمه، خاصّة و أننا في فصل الصّيف، و أنها ستضغط بثقلها على جسده النّحيل، لكن ليس في الإمكان أبدع ممّا كان.

ثمّ نظرت إلى الشّيخ الآخر؛ فإذا هو قد لفّ رأسه بمنديله الأبيض حتى يسلم على وجهه من لسعها، و لكن من قال أنها لا تلسع فوق المناديل ؟.

و مرّ اللّيل علينا بطيئاً ثقيلاً إلى أن أتى الصّباح، قرّرنا بعدها إذا زرنا إحدى القرى ألاّ ننام فيها، لأنّه بالأحرى لا يوجد فيها نوم.

المطلوب فرقة نسائيّة !

دُعينا إلى عرس، فلمّا وصلنا البيت؛ خرجت إلينا ربّة المنزل؛ فقلنا لها : " نحن الفِرقة التي دعوتموها لإحياء حفلكم "، قالت : " نحن لمّا دعوناكم ظننا أنّكم نساء ! "، فقلت : " لمّا تكلّمتِ معي لم تقولي أنكنّ تردن فِرقتنا النّسائيّة؛ أ ليس كذلك ؟ ".

قالت : " بلى ".

قلت : " و ما أدراني أنّكنّ تردن الفِرقة النّسائيّة التي لم تُذكر أصلا ؟ "؛ فأُسقط في يدها و أقيمت عليها الحجّة؛ فقالت : " ألا يمكن أن تحضروا تلك الفِرقة الآن ؟ "، قلت : " يا أختي هذا مستحيل، و يحتاج إلى موعد مسبق؛ و بأيّام حتى يجهّزن أنفسهنّ ".

قالت : " فما العمل الآن ؟ "؛ قلت : " طالما أنّ فرقة الرّجال موجودة و معنا أجهزتنا الصّوتيّة؛ فأنتنّ تأخذن جانباً من حديقة منزلكنّ، و نحن نأخذ جانباً آخر و ننشد؛ لكن بحيث لا تروننا و لا نراكن ".

وافقت على مضض قائلة : " لكن نريد ألحاناً ذات إيقاع راقصٍ حتى ترقص النّساء على ذلك الإيقاع ".

قلت : " لك ذلك من أوّل الحفل إلى آخره، و لن نسكت إلاّ إن طلبتنّ ذلك منّا ".

و بدأ الإنشاد و بدأت زغاريدهنّ تتعالى و تتوالى على أحسن ما يكون، كانت وجوهنا باتجاه جدار الشرفة، و بعد ساعتين من العمل المتواصل؛ جاءت أمّ العروس تطلب بطاقات الفِرقة، بطلب من ضيوفها اللّواتي سررن من إنشادنا؛ حتى يتصلن بنا في المستقبل ليدعوننا إلى أفراحهن، و طلبن أن نتابع الإنشاد، و مرّ الحفل بسلام.

بعد أيّام زارني أحد الأصدقاء قائلا : " هل تعلم أنّني استمعت إلى إنشادكم في حفل النّساء أنا و زوجتي ؟، إذ كنّا نجلس في شرفة منزلنا ؟، و كنا نضحك من منظركم و أنتم تنشدون لأنفسكم و وجوهكم إلى الجدار ".

الباب الأيسر

عندما كنت شابّا في مدينة " حلب "؛ كوّنت فرقة إنشاد، و صرنا نُدعى إلى الحفلات بشتى أنواعها، كنت أذهب إلى محلّ الأجهزة الصّوتيّة لاستئجار جهاز، أعطيه العنوان و التّوقيت و أدفع له العربون.

لمّا نذهب إلى الحفل نجده قد سبقنا بتركيب الأجهزة، كنت أستعمل في تلك الفترة الدّرّاجة الهوائيّة " البسكليت "، و كان من يمتلكها في تلك الحقبة من الشباب يُعتبر ميسور الحال.

مرّة جاءني حفل مستعجل على غير العادة، أي قبل مدّة غير كافية، فركبت درّاجتي و انطلقت لمحلّ الأجهزة الصّوتيّة لاستئجار جهاز لحفل المساء، و كانت المسافة بعيدة، و يجب أن أعود لرفع أذان المغرب في المسجد، لأني تركت حرفة التّعليم.

قال لي مؤجّر الأجهزة : " يوجد جهاز، لكن لايوجد من يركّبه في مكان الحفل "؛ قلت له : " أمري إلى الله، آخذه بدرّاجتي و أركّبه ".

كانت الأجهزة في فترة السّبعينيّات من القرن المنصرم بسيطة، و ليست كأجهزة هذه الأيام، فهي عبارة عن " أمبلي فاير " أو " مكسر " ببوقين كالتي توضع في أعالي المآذن مع أسلاك.

حملت كلّ هذه الأشياء على درّاجتي العتيدة و انطلقت مسرعاً إلى مسجدي لأدرك آذان المغرب، و كانت تسير أمامي سيّارة، ثمّ توقفت على يمين الطريق لتنزيل بعض الرّكاب، و لمّا مررت بمحاذاتها و إذ بالباب الأيسر يُفتح فجأة، فاصطدمت به بتلك السّرعة؛ فطرت في الجوّ في حركة بهلوانيّة لا إراديّة كممارسي رياضة الجمباز، طبعاً؛ أنا العبد الضّعيف و أجهزتي - لا أراكم الله أيّ مكروه - ، ثمّ سقط الجمل بما حمل، و تبعثر كلّ شيء في الشّارع.

أحمد الله كثيراً على أنّه لم تكن خلفي سيّارة، و إلاّ لكانت قد قضت عليّ، أصبت برضوض و كدمات، و تعفّرت بالتّراب، و تضرّرت الدّرّاجة، لكنها ظلّت صالحة للرّكوب، أمّا الأجهزة لم تتضرّر و الحمد لله.

نفضت الغبار عنّي، و أعدت تحميل الأغراض و انطلقت إلى المسجد و أنا أحمد الله مجدّداً أنّ القدر قد وقع محفوفاً دائماً بلطف الله عزّ و جلّ.

الحق حقّ؛ و هو أولى أن يُتّبع

دُعيت شابّا لحفل عرس مع المنشد " فؤاد خانطوماني " رحمه الله تعالى، قبل أن يرحل إلى مدينة " دمشق "، و كان يكبرني بكثير، كان معنا مجموعة من المنشدين، و أظنّ أنّهم جميعاً قد انتقلوا إلى الدّار الآخرة.

إبتدأنا الإنشاد على عادة أهل مدينة " حلب " بالموشّحات الغزليّة، ثم سمعت " خانطوماني " يقول للذي يجلس على يساره " عمر الدّربي " أن اعطنا طبقة موشح " ملأ الكاسات " المنسوب لحنه للمبدع " محمّد عثمان " المصريّ رحمه الله، فدندن " عمر الدّربيّ " دندنة بفيه من مقام " الرّاست " الذي صيغ منه الموشح، فلمّا سمعت دندنته التفتّ إليهما قائلا أنّ هذه الطبقة عالية جدّا و لن نستطيع الإتيان بخانة الموشح التي تكون حادّة جدّا "؛ فضحكا من كلامي، ولسان حالهما يقول : " نحن كنّا ننشد قبل أن تلدك أمّك "؛ و كان هذا على مرأى و مسمع الناس و المنشدين، لأنّ المكان متواضع المساحة، و استهلّوا الموشح و تبعتهم مع باقي الفرقة، و أنا أقول في نفسي : " عمّا قريب سيذوب الثلج و يظهر المرج ".

في هذا الموشح خانتان؛ الأولى من " الصّبا " و الثّانية من " حجاز الدّيوان " كما يسمّيها العراقيّون، و هي أعلى من الأولى بكثير، و أثناء أداء خانة " الصّبا "، تبيّن لهما صحّة كلامي، و صارا يكرّران خانة " الصّبا "مرّات عديدة، و نحن نكرّر معهما بطبيعة الحال، و هما يفكّران بكيفيّة الوثوب إلى تلك الخانة التي بدت أمامنا كجبل نريد تسلّقه، ثمّ صارا يتنحنحان، و يشربان الماء تحفزاً للوثوب، لكن الوثوب هنا غير مأمون، و قد تكون نتائجه سيّئة؛ فإمّا سيكون نشازاً واضحا؛ أو سيكون كسراً للطّبقة بالخروج عنها، ثم بدا لهما الخروج من ذلك بأقلّ الخسائر، فتركا الموشح عند خانته الأولى، و انتقلا إلى لحن آخر، و هذا لدينا في " حلب " شيء غير جيّد فنيّا.

في الحقيقة شعرا بحرج شديد و خجلا، خاصّة أنني أبديت رأيي في البداية و سمعنا الناس، فلمّا انتقلا إلى لحن آخر نظرت إليهما و تبسّمت ابتسامة فهما مغزاها.

أريد أن أقدّم فائدة لمن كان جديداً في الإنشاد و حدث معه مثل هذا، هناك حلول كثيرة، و لدينا ألحان قليلة نسبيّا يكون فيها القرار منخفضا جدّا، و الجواب مرتفع جدّا، مثل موشح " ملأ الكاسات و سقاني "، أو موشّح " ما احتيالي يا رفاقي في غزال ".

هذا على سبيل المثال لا الحصر، فمثل هذه الألحان الواسعة المساحة جدّا؛ نستعمل مقياس الصّوت " الدّيابازون "، فإنّه يعطينا الطبقة المطلوبة تماما، فنؤدّي اللّحن و نحن مطمئنّون لعدم حدوث مفاجآت معنا، و قد كان المنشد " صبري المدلل " رحمه الله يستعمل آلة صغيرة تسمّى " هارمونيكا " لضبط الدّرجة.

أمّا هذه الأيام؛ فبإمكان المنشد أن يأخذ الطّبقة من جهاز هاتفه الذي بإمكانه تنزيل برنامج صوتيّ عليه.

ثمّ على فرض أنه حدث مثل هذا الأمر معي؛ يمكن أن أعمل في اللّحن إضافات و تصرّفات بواسطة آهات أو

باستعمال عبارة " يا ليل "، أنزل من خلالها الدّرجة بمقدار مناسب، بطريقة فنيّة تحفظ ماء الوجه و نزيل الحرج، أو أدخل في الموشّح موّالا أو قصيدة؛ و يكون اللّحن الجماعيّ قد توقّف.

ثم خلال أداء الفرديّ أقوم بتخفيض الدّرجة أو حتى رفعها إذا كانت أخفض من اللاّزم، ثم نعود لإكمال الموشح دون مشاكل؛ و هذا كلّه يأتي من العلم بدرجات السلّم الموسيقيّ، و معرفة تصوير المقامات و الممارسة.

على رأسي !

ذهبت في أواخر الثمانينيّات إلى العمرة، فالتقيت بصديق سعوديّ، كان ذوّاقاً للفنّ، و محبّا للإنشاد، كان مديراً لإحدى المدارس في " مكة " المكرّمة، فقال لي : " سآخذك اللّيلة إلى سهرة إنشاديّة "، فذهبت معه إلى فيلاّ فخمة في أحد أطراف " مكة "، و رحّب بنا صاحب المنزل ترحيباً حارّا، و عرّفه صاحبي عليّ قائلا : " هذا منشد سوريّ "، فقال : " إذن سيسمعنا في مدح النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم ".

كان من بين الحضور وزير النّفط السّابق الدّكتور " أحمد زكي اليماني "، و جمع من النّاس، و كان منشد من " مكّة " ينشد لهم، ذلك المنشد يعرفني تماما؛ فأعطاه صاحب البيت إشارة أن يقدّمني بعد أن ينهي فقرته، فردّ عليه ذلك بالإشارة واضعاً يده على رأسه، أي أمرك على رأسي.

مرّت ربع ساعة و هو مسترسل في إنشاده؛ ثمّ نصف ساعة، و صاحب البيت يشير إليه، و صديقي يشير إليه، و هو لا يزيد على أن يضع يده على رأسه، ثم مرّت ثلاثة أرباع السّاعة، ثمّ ساعة كاملة، و هو يضع يده على رأسه، فتضايق صاحب البيت منه، و تضايق صاحبي منه، لكن لم يستطيعا أن يفعلا شيئا، لأنّ المجلس كان وقوراً خاصّة بمدح النبيّ الكريم، و هو لا يزال مسترسلاً في إنشاده و كأنّ شيئاً لم يكن، و كلّما جاءته إشارة ليفسح لي المجال - كما هي العادة في مجالس الإنشاد - ؛ وضع يده على رأسه، و لعلّه أنشد ساعة و نصف، و لم يأتِ دوري بعد؛ فانزعج صاحبي جدّا، و بلغ السّيل الزبى، فأشار إليّ برأسه أن هيّا لنغادر، و نهض واقفاً قائلا : " السّلام عليكم "، و قلت مثلما قال و تبعته، فلحق بنا صاحب المنزل إلى الباب، و صار يعتذر منّا و يرجونا أن نعود، و أنّه سيصلح الوضع، لكنّ صاحبي رفض الرّجوع.

إتصال استراتيجيّ

بالأمس كنت في سهرة مع إخوة كرام، و مرّ في حديثنا ذكر للمنشد الحلبيّ " صبري المدلل " رحمه الله، و ذكرنا مسجد " العبارة " الذي كان يؤذن فيه، و رجعت بي الذّاكرة إلى الوراء عقوداً حينما جاءني أحد الإخوة في " حلب " قائلا : " أريد منك أن تؤذّن لصلاة المغرب فقط طيلة شهر رمضان، في المسجد الأمويّ الكبير؛ نيابة عن الفنّان بكري الكرديّ، لأنه يشقّ عليه و هو كبير السّنّ أن يؤذن المغرب ثم يذهب لبيته لتناول الإفطار ".

قلت : " على الرّحب و السّعة "، فأعطاني مفتاح غرفة الأذان التي هي في أسفل منارة المسجد الأثريّة المرتفعة المليئة بالزّخارف و النّقوش البديعة، التي هي الآن - للأسف - مهدومة تماما.

ذهبت للمسجد فقابلت الشخص الذي يعطي التّوقيت للمؤذنين، فقال لي : " عند المغرب أكون في بيتي، و لمّا يدخل وقت الصّلاة أتّصل بك بالهاتف الأرضيّ هذا - و هو موجود قرب مكبّر الصّوت - ، و لا تنسَ أن تشعل المصباح الكبير الموجود في أعلى المنارة لتكون إشارة لجميع المساجد البعيدة، لتبدأ الأذان وفقاً لإشارتك؛ و سارت الأمور بعد ذلك على خير ما يرام، فلا تسمع أذانا في " حلب " أو ضواحيها إلاّ بعد إنطلاق أذاني، و أذهب بعد ذلك إلى البيت ماشيا و أفطر، حيث لم أكن بعد قد امتلكت الدّرّاجة.

في يوم من الأيّام؛ إنتظرت هاتف المؤقت كما هي العادة فلم يتصل، و قد حان وقت المغرب، قلت : " أنتظر دقيقة فلعلّه اتصل "، لكن عبثا؛ و نحن نعلم أنّ النّاس في رمضان تكون كلّها في انتظار الأذان، إذن فالموقف حسّاس للغاية، قلت : " أنتظر دقيقة ثانية فلعله يتصل "؛ لكن دون فائدة؛ و تذكرت وقتها " صبري المدلل " حينما كلّف شخصاً في رمضان أن يؤذّن المغرب لأنّه كان مدعوّا عند أناس على الإفطار، و سمع ذلك الشخص صوت قرآن من مذياع الجيران فظنه أذانا، فراح يؤذن بمذياع مسجد " العبارة " القويّ، و الوقت لم يحن بعد.

و ما زاد الطين بلّة أنّ مدير الأوقاف و الشؤون الدّينيّة؛ كان يسكن بجوار المسجد، فلمّا سمع الأذان و بغير صوت " المدلل "، نظر إلى ساعته و إذا بوقت المغرب لم يدخل بعد، و بدأت النّاس بالأكل، فطار صوابه و استشاط غضبا، و توجّه إلى المسجد غضبانا و صاح في وجه ذلك المؤذن بالوكالة : " يا أخي من قال لك أن تؤذن ؟، و أين المدلل ؟، و كيف أذنت قبل الوقت ؟، يا ويلك من الله لقد أفسدت صوم الصّائمين "، يا لها من ساعة مجنونة و عصيبة و صعبة، من يتحمّل وزر الذين أفطروا ؟؛ فما كان من مدير الشؤون الدّينيّة إلاّ أن فصل " المدلل " من وظيفته في اليوم التالي، الذي جاء لأذان العشاء؛ فأعلمه النّاس بما حدث فكاد يُغمى عليه، ثمّ أُعلم بقرار الفصل في اليوم الموالي.

كان متعلّقا جدّا بمسجد " العبارة " الواقع وسط " حلب "، و توسّط للعودة إليه على أن يتوب عن فعلته، فلم يفلح، ثم رحموه فوضعوه في مسجد صغير جدّا و ناءٍ عن بيته و عن وسط المدينة، ثم أعادوه بعد صبر و وساطات.

كلّ هذه الصّور و الأفكار و المعاناة دارت في رأسي و أنا أنتظر هاتف المؤقت حتى أطلق أذان المغرب، و لكن

الهاتف لم يرن.

أدركت يقيناً أنّ الوقت قد دخل بل فات عليه دقائق عديدة، و مع ذلك لم أؤذن؛ لن أكون كبشاً ثانياً للفداء؛ بعد " صبري المدلل "، و النّاس تنتظر و المساجد تنتظر؛ فلمّا سئموا الإنتظار و تمادى الأمر صاروا يؤذّنون من تلقاء أنفسهم، عند ذلك أشعلت المصباح و بدأت الأذان ضامنا أنّني لم أفطّر صائماً قبل الوقت، و أنّه لا أحد سيعاتبني على هذا.

مصيبة

دُعيت مع فرقتي إلى حفل عرس في " حلب " أيّام الشباب، و كان الحفل في بيت عربيّ من بيوتها القديمة، كنّا عادة نبدأ بوصلات من الموشّحات التراثيّة الغزليّة المليئة بالتطريب، و نتبعها بقصائد فرديّة من النّوع الغزليّ كذلك؛ على غرار قصيدة " قل للمليحة في الخمار الأسود "، التي يؤديها " صباح فخري "، و أهل " حلب " مولعون جدّا بالغزل و " يا ليل يا عين "، ثمّ لمّا يقترب الحفل من نهايته يختم بقراءة تعطيرة المولد و الأناشيد الدّينيّة.

بعد أن أدّينا الوصلة الأولى من الموشحات؛ إبتدأت التّفريد باللّيالي، " يا ليل يا عين "، ثم بقصيدة غزليّة من نظم الشيخ الجليل : " محمّد أبي الهدى الصّياديّ الحسينيّ " رحمه الله، و قد كان شيخاً للسّلطان " عبد الحميد " رحمه الله، هذه القصيدة كلّها تغزّل بالعيون، من بعض أبياتها :

فتكت عيون الغيد بالألباب — و سطت بشوكتها على الأحباب
و رمت قلوبا قد أضرّ بها الهوى — و تأمّلت من بعدها بخراب
مرض الجفون أعانها فتسلطنت — و غزت و قد أسرت سباع الغاب
لله فيها قدرة مع ضعفها — تلقي صدور الناس في الأعتاب
الله من فتك العيون و سحرها — هي للمصيبة أعظم الأسباب
فتاكة فتانة قتالة — طعّانة لكن بغير حراب
جرّاحة لكن بغير جوارح — سحّارة لكن بغير كتاب

عندما وصلت إلى الشطرة التي تقول : " هي للمصيبة أعظم الأسباب "، كنت أكرّرها بأشكال متنوّعة من الجمل اللّحنيّة و المقاميّة صعوداً و هبوطا، فإذا بشخص من أهل العرس يدخل علينا صائحاً فزعاً منهاراً قائلا : " لقد حدث حادث سير مروّع لعدد من السّيّارات التي فيها العروس و أهلها و أهل العريس، و الله وحده يعلم حالة الإصابات "؛ فما كان من أهل الطرفين إلاّ أن هرعوا إلى المستشفى ليتفقّدوا أهاليهم، و خرجت مع فرقتي من المكان قاصدين بيوتنا، تاركين الأجرة التي ما عدنا نفكّر فيها بعد سماع هذا الخبر المفجع و المؤلم.

كنت أفكّر مليّا بتلك الشطرة من البيت؛ و كيف أنّ المصيبة حلّت بنا فقط عند ذكرها، و تذكرت حديثه الشريف : " البلاء موكل بالمنطق ".

منذ ذلك اليوم كنت إذا أنشدت تلك القصيدة، و وصلت إلى تلك الشطرة أقول : " هي للصّبابة أعظم الأسباب "؛ فوجدت كلمة " الصّبابة " أجمل من كلمة " المصيبة ".

هكذا كان نبيّنا الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم يحبّ التّفاؤل، و يتخيّر أجمل الألفاظ.

لا تقصّ عليّ حلمك

دُعينا إلى حفل في إحدى مدن " الجزائر "؛ في " أولاد جلاّل "، كنا حينها في مدينة " بسكرة "، و المدينتان إلى الجنوب الشرقيّ من العاصمة بمسافة 5 ساعات بالسّيارة تقريبا.

إنطلقنا بالسّيارة من " بسكرة " إلى " أولاد جلاّل " لأداء الحفل؛ و في الطريق بدأ صديقي الذي يقود السّيارة يقصّ عليّ حلماً رآه بالأمس في منامه، قلت له : " خيراً إن شاء الله "، قال : " رأيت أنّنا ركبنا السّيارة و أثناء الطّريق حدث لنا حادث ... "، فبادرته بالقول حالا : " لا تكمل "، و إذا بكلب كبير يمرّ أمام السّيارة، فصدمته بقوّة صدمة هائلة، شعرنا بقوّتها، إذ اختل توازن السّيارة، ومرّت فوقه تاركة إيّاه جثة هامدة، و صحنا بصوت واحد : " يا لطيف ألطف ".

حاول صديقنا تخفيف السّرعة تدريجيّا حتى توقفت، حمدنا الله على سلامتنا، فالسّيارة لم تنقلب، و إلاّ لكانت العواقب سيئة جدّا، فالحمد لله على منّه و كرمه.

ترجّلنا من السّيارة لنتفقّد حجم الأضرار النّاجمة عن الحادث، وجدنا الواجهة الأماميّة قد تحطّمت : الأضواء؛ خزان الماء؛ و ربما أشياء أخرى؛ فما العمل الآن و النّاس هناك ينتظرون ؟، و السّيّارة غير صالحة للإستعمال البتة ؟.

إتّصل صديقي بجوّاله بأهل الحفل و أحاطهم علماً بما جرى، فقالوا : " سنرسل سيّارة تحضركم "، و جلسنا في السّيّارة ننتظر إلى أن وصلت فأخذونا.

و لمّا وصلنا هناك وجدنا وفداً كبيراً في استقبالنا في إحدى المقرّات الحكوميّة، و قد علموا بالحادث فهنّؤونا بسلامتنا، و وقف كبير القوم يرحّب بنا و يطري و يمدح ثم جلس، فقمت أردّ له الجميل بجميل و الثناء بثناء.

بدأنا الحفل بأعصاب متوترة جدّا، و خشيت أنّ مزاجي لا يسعفني في الأداء، لكن الله لطيف بعباده، حيث شرع القارئ المتألق الجزائريّ " زكريّا حمامة " في تلاوة رائعة؛ ثم بدأ الإنشاد مع تجاوب منقطع النظير من الحضور الذي ألهب مشاعرنا، و جعلنا نعطي أحسن ما عندنا، و نسينا كل ذلك الكدر الذي سببه لنا الحادث، فمرّ الحفل على أحسن ما يكون، و طبعا أدّينا الصّلوات في أوقاتها، ثم قدّموا العشاء الفاخر لكلّ من حضر و عدنا إلى " بسكرة ".

في اليوم التالي أحضرت رافعة السّيارة المتضرّرة إلى مدينة " بسكرة " حيث تمّ إصلاحها.

ليلة أم مساء الجمعة ؟

إتّصلت بي سيّدة هاتفيّا، من محافظة " جرش " في " الأردن "، قبل ظهور هذه الهواتف المحمولة؛ و قالت أنها تدعوني لإحياء عرس ابنها، نيابة عن زوجها، الذي كلّفها بذلك لانشغاله، طالبة أن أحضر مع فِرقتي مع مكبّرات الصّوت، مبكّرين لتركيبها، و أعطتني عنوان منزلهم الذي سيقام الحفل على سطحه، و هو يقع على هضاب مرتفعة، و مكسوّة بالغابات و الأشجار المثمرة، و يعتبر المكان في فصل الصّيف مصيفاً خلاّباً بأنسامه و أشجاره؛ و حدّدت لي موعد العرس قائلة : " ليلة الجمعة "، قلت لها : " يا سيدتي؛ هناك فرق بين ليلة الجمعة و مساء الجمعة؛ فليلة الجمعة تعني مساء يوم الخميس، و أمّا مساء الجمعة فهو واضح "؛ قالت : " بل مساء يوم الجمعة "، قلت : " على بركة الله "؛ بعد أن اتفقنا على أجور الفِرقة؛ و كنت قد دُعيت مع الفِرقة إلى حفل آخر ليلة الجمعة، أي مساء يوم الخميس، و تمّ على أحسن ما يُرام؛ فلمّا عدت إلى المنزل ليلا؛ فاجأتني زوجتي قائلة : " إتصل بك أهل حفل جرش أن أين الشيخ و أين الفرقة ؟، و قد امتلأ المكان بالضيوف، و أصبح أهل الحفل في حرج معهم "، و كان والد العريس يصيح على الهاتف : " لقد فضحني زوجك مع ضيوفي، فماذا أصنع ؟، و هل دفع له غيري مبلغاً أكثر حتى ذهب إليهم ؟ ".

قالت زوجتي : " لقد خرج هو و فرقته و أجهزته إلى عرس، و لعلّه في الطريق إليكم؛ قال لها غاضبا : " مستحيل لو جاء لكان وصل من زمن، أكيد أنّ أناساً آخرين دفعوا له أكثر حتى ذهب إليهم، و صار يتفوّه بألفاظ مشرّقة ومغرّبة، فلا تعرف بماذا تجيبه ؟.

في الحقيقة وقع عليّ هذا الخبر وقوع الصّاعقة، و تفاجأت به كثيرا، و حزنت جدّا لموقف الرّجل مع ضيوفه؛ قلت لزوجتي : " إنّ زوجة الرّجل دعتني و لقد بيّنت لها الفرق بين ليلة الجمعة و مسائها، و هي أكّدت أنّ الحفل غدا و ليس اليوم، و الخطأ منها هي و ليس منّي، و قد كان الأجدر بزوجها أن يتّصل هو و يتفاهم معي، و لو تمّ ذلك لما حصل ما حصل "، و لكن الله قدّر ذلك.

بتّ مهموما، و في الغد اتّصلت به، فلمّا عرفني قال غاضبا : " لا أريد أن تكلّمني؛ لقد فضحتني مع ضيوفي "؛ فقلت : " أرجوك اسمعني و بعدها احكم عليّ "، فلمّا سمع روايتي عذرني و هدأ روعه، و سكن غضبه، و أظنه توجّه بعد ذلك إلى زوجته ليصبّ عليها جامّ غضبه، و أرجو ألاّ يكون قد قسا عليها.

هذه الطائرة لا تصلح للسّفر

دُعيت إلى " الجزائر " قبل سنوات؛ لإحياء بعض الحفلات، فغادرت " عمّان " إلى العاصمة الجزائريّة، ثمّ انتقلت من المطار الدّوليّ إلى المطار الداخليّ، حيث نأخذ طائرة إلى المدينة المطلوبة.

بعد انتظار دام ساعات؛ كان اللّيل قد أرخى سدوله، و أخذ منّا التعب و الجوع مأخذه، و اتّصل أهل الحفل بنا، قالوا : " وصلت الطائرة فعلى الرّكاب التوجّه إليها "، نظرت إليها، فوقع في قلبي أنّ هذه الطائرة غير صالحة، و لن تستطيع أن توصلنا إلى وجهتنا.

أوّل مرّة يحصل معي هذا بالنسبة للطائرات، شعرت بانقباض في قلبي، لكن لا بدّ من الرّكوب مهما كان، و أقلعنا و دعوت دعاء السّفر كالعادة دائما، مع آية " الكرسي "، و سور أخرى.

سارت الطّائرة بشكل طبيعيّ، قاطعة تقريباً نصف المسافة، فبدأت مخاوفي تتبدّد، و داخلني شعور أنّ الخاطر قد يكون من الشّيطان أو من هذه النّفس.

بدأت الطمأنينة تسري إلى نفسي، هنا أعلن كابتن الطائرة أنّ خللاً حدث فيها؛ و أنه سيعود بنا مضطرّا إلى العاصمة " الجزائر "؛ فتأكّد لي أنّ الخاطر لم يكن من الشيطان، و لا من النفس؛ فارتسم القلق على وجوه الرّكاب، عندما علموا بأنهم يركبون طائرة فيها خلل، و هم على ارتفاع آلاف الأقدام في الجوّ، و في سواد اللّيل البهيم.

على كل حال حطت بنا الطائرة على مدرج المطار من جديد، حمدنا الله تعالى، و تنفّسنا الصّعداء؛ و نزلنا منها مع أمتعتنا بانتظار طائرة بديلة، تأخّر قدومها جدّا كذلك، و حلّ بنا التّعب و الجوع و النّعاس؛ و لم نصل وجهتنا إلاّ قرب الفجر، لأنّه بعد وصولنا؛ ينبغي أن نكمل المرحلة الأخيرة برّا بالسّيارة لمدّة لا تقل عن ساعة و نصف.

الحمد لله على كلّ حال، فالسّفر كلّه تعب و لو كان بالطائرة.

لا يوجد شيء في الشريط

في الثّمانينيّات من القرن الماضي؛ قام الشّعب في " أفغانستان " يقاتل الاستعمار الرّوسيّ الشيوعيّ المحتلّ لأرضه، يذود عن بلده بشجاعة نادرة، و بصبر هائل؛ و قد أوقع المجاهدون بالغزاة أضراراً بالغة، و كبّدوهم خسائر جسيمة، إلى أن أرغموهم على الخروج من بلدهم خاسرين مدحورين بحمد الله.

في غمرة تلك المعارك و الأحداث؛ إلتحقت بالثّوار أعداد كبيرة من مسلمي العالم، ليقارعوا الظّلم و ينصروا المظلوم، كما ساهم الشّعراء ذوو الضّمائر الحيّة بأشعارهم، و ساهم كثير من المنشدين بأناشيدهم التى كانت تنشد في العالم الإسلاميّ، لتحريك مشاعر الغضب ضدّ الرّوس، و إحياء روح الجهاد في نفوس المسلمين، و كانت أشرطة الكاسيت تلك - قبل ظهور السّيديهات - تصل إلى المجاهدين في جبهات القتال، فتزيد من عزائمهم قوّة و إصراراً و صمودا في قتال الظّلم و دحر الطغيان.

رأيت لزاماً عليّ أن أساهم و لو بقسط يسير من الشّعر و النّشيد مقابل ما يقدّم المجاهدون من دمائهم و أموالهم.

بحثت عن الأشعار المناسبة في دواوين الشّعراء، و صفحات الجرائد و المجلاّت، و نظمت شيئاً من عندي، ثمّ عكفت على تلحين تلك الأناشيد حتى أتممتها، ثمّ دعوت أعضاء فِرقتي لحفظها، و أخذت معنا " البروفات " عدّة جلسات، كان كلّ منشد يأتي من ناحية من نواحي العاصمة، تاركاً عمله و ارتباطاته.

أنفقنا وقتا طويلاً في تجهيز العمل، ثمّ بدأنا التسجيل الذي استهلك ساعات طويلة، و كان ذلك في أحد المساجد، فلمّا انتهينا حمدنا الله تعالى بعد عمل أسابيع لنحصل في النّهاية على شريط مدّته ساعة واحدة لا غير.

حملت ذلك الشريط بعناية و حرص و توجّهت إلى إحدى محلاّت التسجيل لأنسخ عنه عدّة نسخ، نرسلها مع أحد الذاهبين إلى " أفغانستان "، و ننشر العمل في " الأردن " الذي كان فيه ما يشابه عملنا، أعطيت الشّريط للشخص المسؤول عن النّسخ ليبدأ بالعمل، و كان من عادتهم أن يُدخلوا الأشرطة المراد التسجيل عليها داخل ممحاة مغناطيسيّة لمحوها تماما، ثم يقومون بعمليّة النّسخ، و بعد أن نسخ الموظف عدّة أشرطة؛ أراد أن يطمئن على جودة عمله، فقام بوضع إحدى هذه الأشرطة المنسوخة في جهاز التسجيل و أداره فإذا به ساكت لا ينطق، ثمّ وضع غيره و غيره و لا من صوت و لا أيّ حسّ.

ثمّ وضع النسخة الأصليّة فإذا بها ساكتة كسابقاتها بعد أن كانت تلعلع قبل قليل.

لقد مُحي الشّريط الأصل بطريق الخطأ، و ذهبت جهود أيّام طويلة بدخوله في ممحاة مغناطيسيّة، و اعتذر الموظف منّي، فحملت نسختي الفارغة بعناية و حرص أقلّ من السّابق، و عدت إلى بيتي و نمت.

تقنيّة مفيدة جدّا

دُعيت مع الفِرقة في مدينة " عمّان " إلى عرس، يومها كان صوتي متعباً جدّا، بسبب نزلة برد ألمّت بي، و صار من المتعذّر أن أنشد، لكن لا بدّ من إحياء الحفل كي لا نفسد على النّاس فرحتهم و هم ينتظرون؛ فكثير من الأعراس الشعبيّة في " الأردن " يمكن أن يكون فيه الإنشاد جماعيّا دون تفريد؛ حيث ينصبّ اهتمام الحضور على " الدّبكة " فما شابه ذلك.

لمّا وصلنا مكان العرس أعلمت أفراد الفِرقة بحالتي الصّحيّة؛ و أنني سأقف معهم أثناء الإنشاد و سأضرب على الدفّ، و سأضع أمامي " الميكروفون "؛ و سأقوم بتحريك شفتيّ دون أن أنشد، و كلّفت أحد الشّباب بقيادة الفِرقة، كنت أحدّد لهم الأناشيد التي سينشدونها، و الطّبقة الصّوتيّة لكلّ وصلة.

سارت الأمور على هذا الشّكل إلى آخر الحفل بشكل جيّد و مقبول؛ فليس في الإمكان أحسن ممّا كان.

في مرّات مشابهة؛ حينما كنت أرسل الفِرقة لوحدها متخلّفاً عنها؛ كان الناس يمتعضون و يتذمّرون، و ربما أنقصوا لهم من الأجرة المتّفق عليها، لكن في هذه المرّة لمّا كنت حاضرا، لا أحد تذمّر، و ما أنقص أهل الحفل من الأجرة شيئا.

لقد قمت بما يقوم به بعض المنشدين في هذه الأيّام، بما يسمّى " بلاي باك "، حيث يُدار العمل المسجّل مسبقا بكامل الكورال و التوزيع؛ و يُبثّ على مكبّرات الصّوت، و يمسك المنشد الرّئيس " الميكروفون "، و يقوم بتحريك شفتيه طبقاً لصوته المسجّل، فيتفاعل الجمهور مع التسجيل.

و هناك نوع آخر يسمّى " ماينس ون "؛ أي يقوم المنشد الأساسيّ بالإنشاد في المواضع التي تتطلّب أن ينشد فيها الفرديّ.

في الحالة الأولى المهمّ رؤية شكل المنشد أو ما يحبّون تسميته " الفنّان "، و في الحالة الثّانية يرون الفنّان و يسمعون صوته، و لا نعلم في المستقبل عمّا سيكون عليه الحال، فلربما جلس المنشد في بيته و أرسل صورته لتظهر على شاشة ضخمة في صالة العرض، و أخذ الأجرة مسبقا.

أ ليس هذا أريح و أحسن ؟.

سآتي للحفل مهما كلّفني الثمن

دُعيت إلى عقد زواج، فلبست ثيابي و انطلقت إلى الحفل بسيّارتي، و في الطّريق رأيت اثنين ممّن أعرفهم، فتوقّفت و قلت : " إركبا معي "، فركبا، و أوصلتهما إلى بغيتهما، و تابعت طريقي إلى مكان الحفل.

كان في طريقي منحدر حادّ، و منعطف قويّ، و لمّا وصلت المنعطف؛ عدّلت المقود إلى جهة اليمين، فذهبت السّيارة شمالا، فعدّلته شمالا فذهبت يمينا، و هكذا؛ أنا أعدّل إلى جهة؛ و هي تذهب إلى الجهة المعاكسة، و كان على يمين المنعطف واد، و على يساره واد، و أنا لا حول لي و لا قوّة، و إذا بالسّيارة تنقلب و أصبح عاليها سافلها، و صارت تزحف على ظهرها و عجلاتها إلى الأعلى، مسافة لا بأس بها، و قد خشيت أن تسقط في أحد الواديين، لكن الله لطف.

هرع الناس إليها و أعادوها إلى وضعها الطّبيعيّ، و أخرجوني منها و هنّؤوني على سلامتي، و طلبوا أن أدير المحرّك فاشتغل، و تبيّن أنها صالحة للسّير، و أنّ الضّرر الذي لحقها هو كلّه في جسم السّيارة الخارجيّ " البودي "، و عرض أكثر من شخص أن يقود بي السّيارة ليوصلني إلى بيتي، فشكرتهم قائلا : " أستطيع قيادتها بنفسي "، و قد تغيّر شكلها كليّة بعد أن كانت كالعروس.

الحمد لله على كل حال.

وصلت البيت و قد تعفّرت بالتّراب، و اتّسخت ثيابي، فلمّا رأتني زوجتي صُدمت و دُهشت، فأخبرتها بما حدث؛ فحمدت الله أنّ الأمر سار هكذا و لم يكن أكبر من هذا.

جلست أفكّر في الحفل، و النّاس الذين ينتظرونني، فصعب عليّ، فاستحممت و لبست ثياباً أخرى، و استأجرت سيّارة، و أبديت عذري لهم فعذروني.

سار الحفل على ما يُرام، و الحمد لله على كلّ الأحوال.

إختفاء مع الإشارة الضوئيّة

رُزق أحد الأثرياء في مدينة " عمّان " بمولود، فدعاني إلى حفل عقيقته، مع جمع كبير متنوّع من العلماء و الوجهاء و الأصحاب، و كان الموعد بعد صلاة الظهر، و الإنطلاق من أحد المساجد لمن لا يعرف بيت الرّجل، و تجمّع عدد وافر من الذين لا يعرفون البيت، عند ذلك المسجد، و سلّمنا على بعض، و جاء الدّليل الذي سيدلّنا على البيت، و انطلقنا بسيّاراتنا من المسجد إلى بيت الحفل، و كنت قد أعددت شيئاً من القصائد و الأناشيد عن المناسبة.

سارت السّيارات في رتل كأنه موكب عرس، و وصلنا إلى إحدى الإشارات المروريّة، و كان لونها أخضرا؛ فعبر من عبر، ثمّ احمرّت الإشارة فتوقفت مع من توقف، بانتظار الإشارة التالية، و كلّ ظنّي أنّ الذين عبروا سينتظروننا بعد مسافة قصيرة، لكن لمّا فتحت الإشارة لنا الطريق عبرت؛ فلم أجد أحداً من الذين أعرفهم، فتوقفت يميناً و تفكّرت قليلا لأرى ما العمل ؟.

في تلك الفترة لم تكن هذه الهواتف النقّالة، بعد طول انتظار، قرّرت أن أعود إلى المسجد الذي انطلقنا منه، إذ لولا أنّني ركن أساسيّ في الحفل؛ لما اهتممت ذلك الإهتمام، و لكنت عوّضت الغداء في بيتي، غير أنّ صاحب الحفل أكّد عليّ أن أحضر، و بكثيرمن المودّة، فأردت أن أدخل السّرور على قلبه و قلوب ضيوفه.

وصلت المسجد و انتظرت و انتظرت دون جدوى؛ لا أعرف رقم هاتفه الثابت، و أغلِقت الأبواب في وجهي، فتوجّهت إلى بيتي، و أنا أ فكّر بذلك الدّليل الذي جاء ليدلّنا على المكان، ثمّ راح يسابق الرّيح بسيّارته، و عبر الإشارة الضّوئيّة و هو لا يحسب حساباً لمن توقفوا عندها.

عدت إلى بيتي قائلاً في نفسي : " قدّر الله و ما شاء فعل، فالحمد لله على حال ".

تهديد مسلّح

في السّبعينيّات من القرن الماضي؛ حينما كنت شابّا في مدينة " حلب "؛ كنت أنشد في عدد من المجالس بشكل دائم، و أسبوعيّا، فخرجت مرّة من أحدها ليلا برفقة أحد التّجار الأخيار، و كان اللّيل قد أرخى سدوله، و خلا الحيّ من الحركة، و المكان يبعد عن الشارع الرّئيس الذي أقصده كلّ مرّة، لأستقلّ من هناك الحافلة إلى بيتي، كان هذا قبل أن أشتري الدّراجة الهوائيّة.

كنت أسير معه نتجاذب أطراف الحديث، و كنت عادة أصل معه إلى موقف الحافلة ثمّ نفترق، فيدخل بيته القريب من ذلك الموقف.

كنّا في طريقنا نمرّ بجانب مقبرة، فنسلّم على أهلها، و نقرأ على أرواحهم الفاتحة ثمّ نكمل طريقنا، و بينما نحن في تلك المنطقة؛ إذا بشابّين يمرّان بجانبنا، قال أحدهما : " كم السّاعة ؟ "، فأخبرناه عن الوقت الذي كان، فأشهر علينا مسدّسا، و قال : " هاتوا المال الذي بحوزتكم بسرعة "، قال له صديقي التاجر : " صلّ على النبيّ "، فلم يفعل، و هدّد باستعمال السّلاح مقترباً من صديقي أكثر، و اقترب صاحبه مني.

دخل صديقي في حيّ مجاور للمقبرة، و أسرعت أنا باتجاه الشارع الرّئيس، فتركني ذلك الشاب - نسيت ماذا كان يحمل من سلاح - ملتحقاً بزميله صاحب المسدّس، الذي كان يهدّد صاحبي.

أسرعت باتجاه بيت التّاجر لكي أفزع أولاده لنجدة أبيهم، فجاؤوا معي مسرعين صوب المقبرة، فرأيناه قادماً بمفرده سالماً معافى، فهنّأناه على سلامته و سألناه عمّا حدث ؟.

فقال : " لقد هدّدا بإيذائي، و طلبا مني المال فرفضت - و كان يحمل مبلغا جيّدا - فبقينا نتعالج و نتجاذب حتى أحسّا بقدوم ناس فهربا، و قد نجّانا الله من شرّهما ببركة حضور مجلس الذكر ".

صاروخ في وجوهنا

دُعينا إلى عرس في إحدى مدن شمال " الأردن "، ركّبنا أجهزتنا الصّوتيّة، و سار الحفل وفق البرنامج المعمول به في كلّ مرّة؛ حيث يبدأ بمقدّمة " عريف الحفل "، في دول شمال " إفريقيا " يسمّونه " منشط الحفل "، ثم تكون تلاوة من آي الذّكر الحكيم لها علاقة بالزّواج، ثم يبدأ الإنشاد إمّا بتفريد من منشد يؤدّي موّالا زجليّا؛ أو قصيدة من الشّعر الفصيح لها علاقة بموضوع العرس بطبيعة الحال.

أو ربما بدأت الفرقة كاملة بالإنشاد الجماعيّ؛ و بعد انتهاء الوصلة يأتي دور التفريد الذي تظهرفيه إبداعات المفرد و المغرّد.

قد يكون في الفرقة أكثرمن مفرد، و هذا يريحها كثيرا، و يعطيها التّلوين و التّشكيل في الأداء.

سارت أمور الحفل بشكل جيّد جدّا، و كان الحضور يجلسون في ساحة مكشوفة، و نحن أمامهم على دكّة مرتفعة، لمّا ارتفعت وتيرة الإنشاد و تصاعد خطه البيانيّ؛ بدأ إطلاق الألعاب و الشهب الناريّة بشكل مكثف، فصار يشوّش علينا و على الجمهور، فما عاد يفهم و لا يسمع ما نقول، و الحقيقة أنّ المنشد في موقف كهذا يصبح في وضع نفسيّ لا يُحسد عليه، و الإنشاد نوعاً من العبث، فيتمنّى ألاّ يحضر عرسا مثل هذا.

لقد أصبت برصاصة في جبيني في حفل عرس في " حلب " عام 1972؛ و الحمد لله أنّ عرسنا اليوم كان مقتصراً على الشّهب النّاريّة و لم يكن رصاصاً حيّا، و إلا لكانت مصيبة و العياذ بالله.

و بينما نحن مسترسلون و منسجمون في إنشادنا؛ و إذا بصاروخ من صواريخ الألعاب النّاريّة آثر أن ينطلق متوجّها إلينا ليعانقنا مسلّماً علينا و مبتهجاً بما نقدّمه من أداء مثير، و ينفجر في وجوهنا مرحّبا و معبّراً عن سعادته العظمى بقدومنا، صُعقنا جميعاً للحظات، و توقف الإنشاد قسريّا، و خطف الضّوء الباهر أبصارنا لثوانٍ معدودة، ثمّ الحمد لله؛ عادت إلينا أبصارنا، و صحونا على أصوات ضحكات و قهقهات من الحضور الذين أضحكتهم غرابة المشهد، واعدين أنّه لن يتكرّر.

باب الشّهرة

ذهبت إلى الحجّ للمرّة الأولى عام 1972؛ و كان سفري بواسطة الحافلة، حيث كان مرورنا على " المدينة المنوّرة "، صلّى الله على ساكنها عليه الصّلاة و السّلام، حيث قمنا بالزّيارة و السّلام عليه، و الصّلاة في مسجده المبارك.

في اليوم التالي أخبرني أحدهم أنّ هناك جلسة إنشاد في زاوية للشيخ " فهمي التركي " بعد صلاة العشاء، في حيّ قديم من أحياء " المدينة المنوّرة "، و هذا كان قبل أن يُزال و يُدخل في توسعة الحرم الشّريف.

ذهبت فرأيتها تغصّ بالناس من مختلف الجنسيّات، و قد جاؤوا لسماع مدح النبيّ و الصّلاة عليه و سماع سيرته العطرة صلّى الله عليه و آله و سلّم، لقد كنت في ذلك الوقت منشداً معروفاً في مدينتي " حلب " فقط، فاتخذت لي مكاناً بين المستمعين، و لم أجلس بين المنشدين كما هي العادة عندهم.

كان عدد المنشدين السّوريين في تلك اللّيلة كثيرا، و بدأ الإنشاد و أنا أصغي إليهم و أتابعهم باهتمام، كانوا يتناوبون الأداء فيما بينهم، و كان هناك منشد أسمر البشرة من منشدي " المدينة المنوّرة " اسمه " عبد الله الفرج "، سمعته يقول عن نفسه " عبد الله الفرج في المدينة و بس ".

لم أجد في هذا الاعتداد بالنّفس أيّة غضاضة أو انزعاج، كوني عند الحبيب المحبوب، فكلّ شيء كنت أنا و غيري نراه جميلاً و مقبولاً غاية القبول.

و كان كلّ حين يحدّثني خاطر في نفسي؛ سيتعرّفون عليك بعد قليل، و يطلبون منك أن تنشد لهم، و تكون موفقا في أداءك، كان هذا الخاطر العفويّ يتردّد في نفسي كلّ فترة من الزّمن لعدّة مرّات، و استمرّ إنشاد المنشدين و امتدّ لمدّة طويلة، و الخاطر يتكرّر و لم يحدث أيّ شيء من ذلك.

وصل الحفل إلى مراحله الأخيرة فقاموا بتوزيع " الضّيافة " على الموجودين، و أمسكت بصحني و بدأت الأكل، قائلا في نفسي : " ها هو الحفل انتهى و لم يتعرّف أحد عليّ ".

و بينما أنا كذلك؛ و إذا برجل كبير السّن منير الوجه - و أظنه من أهل العلم - قام من مكانه و تخطّى الرّقاب متّجّها صوبي، وصل عندي و الأنظار ترمقه، فمدّ يده إليّ فأمسكتها ظانّا أنه يصافحني، فقال : " أنت تخفي نفسك هنا ؟، تفضّل معي "، و شدّني من يدي فقلت له : " سيّدي أنا مرتاح هنا " - و كأني أتجاهل معرفته بأمري - فهزّ برأسه و قال : " تفضّل معي "، فعندها قلت في نفسي : " لا مناص من الإنصياع لطلبه و خاصّة أنه كبير السّن و يبدو من أهل الفضل "، و سحبني خلفه و النّاس تنظر إلينا حتى أجلسني بين المنشدين؛ ثمّ قال على مسمع : " أسمعنا ممّا علمك الله " .

هنا فقط توجّهت كلّ الأنظار إليّ و كنت وقتها في 27 من العمر.

فوجئت بالطّلب، فماذا أقول ؟.

لم يخطر في بالي إلاّ أبيات خمّستها قبل مدّة من الزّمن :

يا حبيبي كفى فؤادي هجرا	جد بوصل لمغرم مات صبرا
جئت شوقا أطوي البوادي سيرا	ما أحيلى لمّا وصلنا سحيرا
و قرأنا على الرّسول السّلاما	قد دخلنا روضا لطه وريفا
و قصدنا بدرا عظيما شريفا	فأتانا منه القبول ظريفا
و شممنا مسك الرّحاب لطيفا	و سفحنا دمعا عليها سجاما

لا أستطيع أن أصف حالتي و حالة المجلس و النّفحات الرّوحيّة التي حدثت، لقد أُعيد الحفل كاملا من البداية حتى اقترب الفجر، لأنّ كلّ منشد من المنشدين صار يدلي بدلوه، و لمّا انتهينا قال لي " عبد الله الفرج " : " أريد أن أقبّلك من فمك "، و جاء و قبّلني.

الحمد لله على نعمه و أفضاله، و عاودني الخاطر الأول : " أ لم نقل لك إن هذا سيحصل ؟ ".

ضيافة فاخرة

بينما كنت أتصفّح " الفيسبوك "؛ رأيت صورة شخص أعرفه، تذكّرت على الفور طرفة حدثت لي منذ مايقرب من نصف قرن، و إنّها لجديرة بالتّسجيل و التأمّل، لأنّها فريدة من نوعها فعلا، و لم أسمع عن مثلها.

دُعيت بمفردي إلى حفل سمر و طرب في مدينة " حلب "، من طرف بعض الأشخاص الذين يتودّدون للسّلطة، و لم أكن أعلم شيئاً عن طبيعة هذا الحفل، كما كان مدعوّا أيضا مطرب مع فرقته، و صار النّاس يتوافدون إلى المنزل فيجلسون على سطحه لأنّ الفصل كان حارّا، و السّطح يكون ألطف من داخل البيوت.

في غمرة ذلك حدثت حركة ظاهرة في أهل المنزل و حاشيتهم، و أصوات ترحيبيّة حارّة و تزاحم؛ و إذا بضيوف قد وصلوا للتوّ بلباس في غاية الأناقة؛ يتوسّطهم شخص شامخ يبدو عليه الإعتداد بالنفس، و نسيت إن كان سلّم و جلس؛ أو جلس و لم يسلّم، و صار بعض الناس الذين يعرفونه و يعرفون طاقمه يأتون إليه مسلّمين، و بالغ صاحب البيت كثيراً و حاشيته في التّبجيل و التّرحيب بهؤلاء الضّيوف الإستثنائيّين جدّا جدّا، و قد شمخ مضيّفنا برأسه اعتزازا بهم، لمَ لا ؟، فهو حدث فريد من نوعه يستحقّ هذا و أكثر من هذا حسب مفهومه.

لمّا رأيت هذا التّعظيم و التّكريم؛ سألت هامساً من كان بجانبي، فأجابني هامسا : " إنّه فلان و منصبه في حزب البعث هو كذا ".

الحقيقة أني نسيت إسمه و منصبه كذلك، كما عرّف بعض أفراد الطاقم الذين هم أقلّ شأنا من ذاك.

راح صاحب المنزل و حاشيته يحضرون أصنافاً من الأكل لا تعدّ و لا تحصى من الفاكهة و الحلويّات و المكسّرات، كانوا يضعون كلّ ذلك أمام ذلك الحزبيّ و طاقمه و الذين يدورون في فلكهم، أمّا باقي المدعوّين - و أنا منهم - فلم يوضع أمامنا أيّ شيء، فاكتفينا بالنّظر و هم يأكلون، و صاحب البيت يجهد في حشوهم بالمزيد ليتقرّب من هؤلاء الواصلين إلى السّحاب، إلى أن أخذوا حظّاً وافراً من ذلك.

كان الظنّ السّائد أنّه سيقدّم لنا " الضيافة " بعدهم، لكنّ الحقيقة أنه لم يخيّب ظننا، بعد أن أعاد تلك " الضّيافة " الفاخرة إلى داخل المنزل عن آخرها، ثمّ أحضر لنا أخرى عادية جدّا تليق بمستوانا و مقامنا.

و أين الثريّا من الثرى ؟.

إفتتاح مطعم

دُعيت الفرقة للإنشاد بمناسبة افتتاح مطعم مختصّ في تحضير الأسماك؛ المشويّة و المقليّة؛ في محافظة " الزّرقاء " في " الأردن "، و كان الإحتفال في سوق مسقوف أمام المطعم، و قد أعلن أصحابه عن الإفتتاح بتقديم وجبات الأسماك مجّانا، على أنغام فرقتنا.

جاء النّاس أفواجاً أفواجا لحضور المناسبة السّعيدة، و قال لنا أصحاب المطعم : " باشروا بالإنشاد و سنرفع لكم حصّتكم من الأسماك فتأكلون آخر الحفل ".

بدأنا و روائح السّمك تداعب أنوفنا، أمّا النّاس فتأتي جائعة و ترجع مملوءة البطون، و منهم من يجلس يستمع لنا، و الوقت يمرّ بطيئاً علينا، و السّاعة مثقلة الخطى، و نحن نتضوّر جوعا، إلى أن قالوا لنا : " يكفي "؛ و نحن نمنّي النّفس بوجبة شهيّة بعد ذلك الجوع و التّعب.

أكملنا لملمة أجهزتنا و أغراضنا، و جلسنا على الكراسي بانتظار حصّتنا من السّمك الذي وعدونا به، و جاء إلينا صاحب المطعم مطأطيء الرّأس خجلا.

قال لنا : " أعذرونا؛ فقد جاءتنا أعداد لم نكن نتوقّعها؛ فأكلوا الأخضر و اليابس و لم يتركوا شيئا؛ فلا تؤاخذونا على هذا الخلل الفنّيّ "، ثم دفعوا لنا أجرة الحفل و عدنا إلى بيوتنا.

قدّر الله و ما شاء فعل.

لعبة سخيفة

إتّصل بي شخص بالهاتف الثّابت و دعاني مع فرقتي إلى حفل عرس في إحدى مدن شمال " الأردن "؛ و أعطاني إسم الحيّ و اسمه و اسم عائلته، محدّدا لي زمن الحفل.

إنطلقت مع الفِرقة و الأجهزة الصّوتيّة إلى تلك البلدة؛ لقد استغرق الطريق ساعة و نصف السّاعة، و لمّا وصلنا المدينة سألنا عن ذلك الحيّ فدلّونا عليه، و لمّا وصلناه سألنا عن منزل تلك العائلة، و عن اسم ذلك الشّخص، فلم يعرفه أحد و لم يعرفوا عائلته كذلك، و تجوّلنا بالسّيارة في جميع أرجاء ذلك الحيّ سائلين عن العائلة و الشخص و لكن دون جدوى، حتى أعيانا البحث و التّنقيب، ثمّ سألناهم في النّهاية : " ألا يوجد اللّيلة عرس لأحد الأشخاص في هذا الحيّ ؟ ".

كان الجواب بسيطاً و غريبا : " لا يوجد أيّ عرس ".

لم يكن في تلك الفترة أيّ وجود لهذه الهواتف النّقالة، حتى أنّ رقم الهاتف الثّابت الذي اتصل بي منه كان هاتفا عامّا مقابل مبلغ من المال، أو لعلّه كان من إحدى المحلاّت التّجاريّة.

لم يكن من عادتي إذا دُعيت إلى أيّ حفل أن أطلب مبلغاً مقدّماً على الحساب، أو ما يُعرف اصطلاحا " عربون "، و لو تمّ دفع العربون لما استطاع ذلك الشخص أن يلعب معنا هذه اللّعبة السّخيفة.

إستنفدنا كلّ الوسائل في البحث عن بغيتنا فلم نفلح، فأيقنّا تمام اليقين أنّ فخّا نُصب لنا فوقعنا فيه، فما قلنا سوى : " حسبنا الله و نِعم الوكيل ".

ثمّ مررنا على مطعم يبيع الفلافل السّاخنة المقرمشة، فأغرتنا رائحتها اللّذيذة؛ فاشترينا منها ما كُتب لنا؛ و صرنا نأكل و نضحك على ما وقع بنا، ثمّ عدنا أدراجنا إلى " عمّان ".

الحمد لله على كلّ حال.

هديّة لطفل

في بداية الثّمانينيّات من القرن المنصرم؛ قال لي أحد الأطفال : " لم تعملوا لنا أناشيد خاصّة بنا نحن الأطفال، فكلّ أناشيدكم للكبار؛ فهل خصّصتم لنا بعضها ؟ ".

نظرت في وجهه و تبسّمت، و قلت له : " إن شاء الله سأقوم بتسجيل شريط كاسيت و أهديك نسخة منه ".

رحت أقتني مجموعات أناشيد للأطفال لعدد من الشّعراء، هي قصائد بدأت ألحّنها، إلى أن صار عندي عدد وافر منها، و انتقلت بعد ذلك إلى تسجيل تلك الأناشيد، فملأت شريط كاسيت كاملا، إذ لم يكن في ذلك الوقت هذه الأقراص المضغوطة أو الذّاكرة المعروفة باسم " الفلاش ميموري ".

أذكر أنّ الشّريط قد استوعب 19 نشيداً من مقامات كثيرة، و ليس كما هو الحال في هذه الأيام فإنّك لا تكاد تسمع إلاّ مقاماً واحداً عند الجميع؛ و هو مقام " الكرد ".

بعد أن تمّ تسجيل الشّريط؛ أخذت نسخة منه و ذهبت إلى منزل ذلك الطفل الذي حفّزني على العمل؛ و طرقت الباب فخرج إليّ هو بنفسه ففرحت لأنّه كان موجوداً و لأني أريد أن أسلّمه الشّريط بيدي شخصيّا وجهاً لوجه؛ رغم أنّ والده كان صديقي، تبسّمت في وجهه قائلا : " ها أنا ذا قد وفّيت بوعدي و هذا الشّريط كلّه عبارة عن أناشيد للأطفال، إليك هذه النّسخة فهي هديّة لك، و سلّم لي على والدك ".

لقد فرح الطفل كثيراً و شكرني فودّعته و انصرفت.

لكن ذلك الإصدار وصل بعد مدّة إلى " قطر ".

نسخة مدبلجة

سجّلت شريطاً للأطفال إذن؛ و اخترت الأشعار من مجموعات شعريّة لعدد من الشّعراء الإسلاميّين؛ على سبيل المثال و ليس الحصر؛ الأستاذ " يوسف العظم " رحمه الله؛ و الأستاذ " كمال رشيد " رحمه الله؛ و الأستاذ " صالح الجيتاوي " أطال الله عمره، و ربما غيرهم فما عدت أذكر.

كانت جميع الأناشيد بصوتي منفرداً لسرعة إنجاز العمل، ثمّ أعطيت الشريط لمكتبة " دار الأرقم " في " عمّان " كما هي عادتي؛ لينسخوا عنه فيبيعوه؛ دون أن أتقاضى عليه أيّ مبلغ.

بعد مدّة اتّصل بي شخص من مكتبة " دار الأرقم " قائلاً أنّ لي أمانة عندهم؛ فذهبت إليهم فناولوني ظرفاً فيه شريط كاسيت و رسالة.

ذهبت إلى البيت و وضعت الشّريط في المسجّل؛ فإذا بصوتي يؤدّي نفس أناشيد الأطفال، و معي فرقة تنشد بشكل منضبط و متقن جدّا نفس الأناشيد؛ بحيث لو سمع الشريط أيّ إنسان لم يطّلع على كواليس الأمر؛ لظنّ أننا فرقة واحدة قد تدرّبنا سويّا على تلك الأناشيد؛ وسجّلناها مع بعض.

لقد أدهشني ذلك العمل و أعجبني كثيراً و سررت به، ثم قرأت الرّسالة المرفقة التي كانت في الظرف؛ فإذا هي مرسلة من مجموعة شبّان قطريّين و غير قطريّين؛ يعرّفوني فيها على أنفسهم و أسمائهم، و إنّهم معجبون بالشّريط و إنّهم من هواة الإنشاد و أنّ أصواتهم جميلة، و إنّهم لمّا سمعوا الأناشيد بصوتي منفردا؛ خطرت ببالهم عمليّة دبلجة له، فوضعوا شريطي الأصليّ في مسجّل و وضعوا أمامهم مسجّلاً آخر و جعلوه في وضعيّة التسجيل؛ ثم أداروا الجهازين و صاروا يردّدون و ينشدون معي و في الأماكن التي ينبغي أن يُدخلوا أصواتهم فيها؛ كما يفعل " الكورال " مع المنشد الفرديّ.

و هكذا حتى أتمّوا جميع الأناشيد.

لمّا انتهوا و أعجبهم العمل؛ أحبّوا أن يرسلوا لي هذه المفاجأة الجميلة؛ ربما كان هذا في عام 1984 أو بعده بقليل.

ثمّ طلبوا منّي أن أعطيهم رأيي في العمل و أن نبقى على صلة بواسطة رسائل البريد الورقيّ العاديّ التي كانت سائدة في تلك الحقبة الزّمنيّة، كما أرسلوا لي هديّة؛ و هي جهاز تسجيل ضخم؛ و فيه مكبّر صوت كنت أستعمله في بعض الحفلات الصغيرة.

و صارت " دار الأرقم " تبيع من هذه النّسخة المدبلجة بدلاً عن تلك النّسخة الأصليّة الأولى.

محاضرة فجائيّة

كنت في " الجزائر " في إحدى المرّات؛ و دعاني أحد الإخوة إلى غداء في بيته؛ و جلسنا بعدها نحتسي الشّاي متناولين الفاكهة؛ و إذا بصديق يأتينا - و هو ذو منصب في تلك المدينة؛ و يعمل في الأنشطة الخيريّة - قائلا : " يا أبا محمود إنّ جمعاً كبيراً من النّساء قد اجتمعن في مكان كذا في نشاط نسويّ؛ و علمن أنّك في بلدنا؛ فطلبن بإلحاح أن آخذك إليهنّ الآن لتقدّم لهنّ محاضرة في أيّ شيء يفتح الله عليك به ".

في الحقيقة فاجأني الطّلب و استغربته، لأنّهنّ لو طلبن أن أذهب فأنشد لهنّ لكان الأمرعاديا جدّا؛ فهو من اختصاصي، لكن أن أذهب و أحاضر؛ فهو المستغرب، لكن لا بدّ ممّا ليس منه بدّ.

ذهبت مع الأخ بسيّارته مباشرة في تلك اللّحظة؛ و أنا أفكّر و نحن في الطريق في موضوع أجعله مدار محاضرتي إن صحّت أن تكون محاضرة.

إخترت موضوعاً معيّناً جامعاً شتاته من هنا و هناك؛ و لم يطل بنا الطريق؛ و دخلنا المكان و إذا به يغصّ بالنّساء من مختلف الأعمار؛ فألقيت عليهنّ السّلام؛ فأجلستني مديرة الجلسة في صدر المجلس؛ و راحت تقدّمني للمدعوّات تعريفاً و إطراء و ثناء، ثمّ أعطتني الميكروفون.

ممّا تعلّمته من أساتذتنا و مشايخنا الذين لهم باع في فنّ الدّعوة أقول أنّ الدّاعية النّاجح هو من يبشّ في وجوه النّاس؛ و يلاطفهم؛ و يعطيهم الإحساس أنّهم على خير بدليل حضورهم في مجالس الخير.

يعطيهم الأمل بأنّهم ناجون حتى و إن قصّر أحدهم أو أذنب فإنّ باب التّوبة مفتوح.

نذكر هنا قصّة الذي قتل 99 نفساً من بني إسرائيل و ذهب إلى عابد جاهل فيأّسه من رحمة الله فقتله؛ ثم ذهب إلى رجل من أهل العلم فأعطاه الأمل و نصحه أن يرحل إلى مدينة أخرى و يفتح صفحة جديدة مع الله؛ فوافاه الأجل و هو في الطريق و نيّته التّوبة فأخذته ملائكة الرّحمة و نجا من الهلاك.

أقول " فنّ الدّعوة "؛ لأنّها فعلاً فنّ؛ و الخطابة فنّ؛ حتى إمامة المصلّين فنّ.

بدأت المحاضرة فكنت أبكي أثناءها و أتماسك؛ و النّساء أمامي على حالتي من التأثّر و الرّوحانيّة؛ إلى أن أنهيت و لست أدري كم من الوقت استغرقت، نسأل الله القبول و أن يكون كلامنا حجّة لنا لا حجّة علينا.

خاتمة

الحمد لله و كفى و الصّلاة على نبيّنا الكريم المصطفى و على آله و صحبه الكرام و من لأثره اقتفى.

الحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه و عظيم سلطانه نحمده و نشكره على نعمه و على ما قسمه لنا و على توفيقه أمّا بعد :

قد تمّ بتوفيق و تيسير من الله و بحمده سبحانه؛ إكمال المؤَلَّف الثاني لشيخ و عميد المنشدين الأستاذ " محمّد أمين الترمذيّ " الموسوم " طرائف و غرائب في عالم الإنشاد "، و الذي روى فيه الشّيخ مجمل و أبرز ما حدث له و لفرقته خلال رحلته الإنشاديّة؛ التي لا تخلو في معظمها من الطُّرفة و الغرابة في ذلك الزّمان، حيث طاف بنا أيضا في أماكن مختلفة من " سوريا " الحبيبة؛ و كذا في بلدان أخرى كان حلّ بها ليُدلي بدلوه ممّا جادت به نفسه في عالم الإنشاد.

رحلة تنوّعت أحداثها بين الحلو و المرّ، و بين الذي سبّب الخيبة و الآخر الذي كان مفرحاً و لطيفاً، و منه ما كان مدعاة للكفاح و مواصلة الدّرب رغم صعاب الظروف و وُعورة المسالك.

لنرجو الله تعالى صادقين أن يتقبّل منّا و منكم من الأعمال صالحها، و أن يغفر لنا و لكم سيّئها و يتجاوز عنّا سبحانه؛ على أمل أن نلقاكم في أعمالٍ أخرى في أيّام قادمة.

نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.



كتاب " قضايا إنشادية الجزء 01 "

● إذا تكلّم الجرّاح فعلى الجميع الإنصات إليه؛ هو يشرّح الواقع و ينزع عن الحقيقة ألوانها الزائفة، لنراها بعيون مجرّدة بعيدا عن التأويلات و التفسيرات المتناقضة، بل ربما يستغرب البعض من موقفنا تجاه هذا الكتاب كوننا من مدرسة " الاختصاص " و الكاتب كما ذكرنا قطب من أقطاب مدرسة " التتابع "، فكيف للمدرسة القديمة أن تقدّم ما هو أكاديمي؛ و هي المعروفة بمدانيتها ؟، نعم هذا صحيح؛ و نحن لا نتفق في بعض النقاط؛ بيد أنّ التطوّر أضحى حتميّة إذا كانت أمنيتنا جميعا الإرتقاء بفن الإنشاد كفنّ مستقل بنفسه و علم قائم بذاته، حتى إذا شرّفني الشيخ بالإشراف على كتابه هذا، الذي كان عبارة عن مقالات منثورة عبر صفحته في " الفيسبوك "؛ غصّ في قلبي أن أرى لؤلؤا و لا أجمعه للناسّ؛ و اللّؤلؤ جوهر نفيس يستوجب الغوّاص؛ و للغوّاص بذلته الخاصّة؛ و يمكن أن يكون من المدرستين، ثم ما يمنع التواصل بينهما ؟؛ إن هي إلاّ أفكار تتطوّر عبر الزمن و المكان.



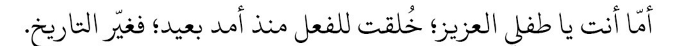
كتاب " المحاولات الأولى " 50 مقالة في الإنشاد

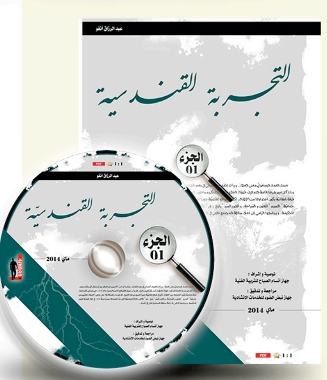
● ما أجمل أن تتحرّك الإرادة في الأطفال !، و ما أروع أن نبث فيهم تلك الرّوح التي تنظر إلى الواقع بتفاؤل !، فينعكس ذلك في مقالات مختلفة المضامين، تخطها أياديهم التي باركها الرحمن، هم لا يدرون أنّهم يعبّرون عن أفكارهم الشخصيّة تجاه قضايا معيّنة، مجرد حركات لا يعون مدى قيمتها في كتابة التاريخ من جهة؛ و لا يدركون أنّهم بأفعالهم البسيطة هذه؛ يفتحون طرقا لغيرهم ... و إذا كان الجمال في تحريك ما يجب أن يتحرّك باكرا في أجيال المستقبل؛ فما أبهى أن تتوسّع هذه الحركة، و يكتب الأطفال للأطفال ... تحت رعاية الكبار !.



كتاب " أوراق من المكتبة الإنشاديّة " 120 مقالة في الإنشاد

● ما زال الأطفال يكتبون للأطفال؛ و ما زال الكبار يرعون كتاباتهم، و لله الحمد و المنّة، هي المحاولات الثانية بتعبير آخر، لكن هذه المرّة ... وفق رؤية مغايرة، تشبه كتاب " السّنابل " إلى درجة معيّنة، فليبارك الله هذا النبات و يسقيه من مائه المقدّس.


أمّا أنت يا طفلي العزيز؛ خُلقت للفعل منذ أمد بعيد؛ فغيّر التاريخ.



كتاب " التجربة القندسية الجزء 01 "

● يحمل العمل الجمعويّ معنى العطاء، و يأخذ المفهوم الإنسانيّ في بعده الشامل، يعلّمنا أن نحبّ الآخرين و نساعدهم دون أن ننتظر أيّ مقابل منهم، و إذا كان يجوز شرعاً إقامة التماثيل؛ فهؤلاء العظماء أولى بكلّ تكريم و تخليد، لقد بدأت خيوط القصّة في الانسجام صيف عام 2012، حين راودتني فكرة إنشاء فرقة إنشاديّة يكون أعضاؤها من الأطفال، لكن في الواقع للقضيّة جذورا أعمق من هذا التاريخ، لقد طرحت المسألة أوّلا على بعض الأصدقاء المقرّبين من جمعيّة " النسيم " للفنون و السّياحة، و أقصد السيّد " رابح . ش " الكاتب العامّ للجمعيّة التي تمّ اعتمادها رسميّا سنة 2010، في إطار التوجّه الجديد للحكومة، و برنامجها الرّامي إلى إعلاء سلطة المجتمع المدنيّ في الجزائر.



كتاب " التجربة القندسية الجزء 02 "

● ما كنت أعرف شيئا في الإنشاد، و ما كان الإنشاد يعني أيّ شيء لي، كنت في العشرينيّات من عمري؛ أحلم بالمال و بالشهرة و بعشيقة شقراء، و حين يناديك الرّبّ أن تعمل من أجله شيئا؛ فإنك ببركته العظمى ستعمل أشياء و أشياء و أشياء، و سيتغير حلمك البسيط من مجرد أوهام أرضيّة؛ إلى ملكوت الرّبّ الذي ناداك، و كلّما حملت هموم الدعوة؛ أرسل الله إليك من يحمل همومك طوعا و قسرا، فسارت إليك الشّهرة حثيثة الخطى كصاحبة الوجه الحسن.

كتاب " مدخل إلى فن الإنشاد "



● هو مدخل إلى فن عريق له أسسه و مميزاته و خصائصه، و لسنا مسؤولين عن الكيفية التي يراها به القرّاء، فما بين أياديكم عبارة عن جسر تنتقلون عبره إلى معارف جديدة، أي أننا نضعكم في ميدان معرفي غريب عنكم بعض الشيء، من أجل أن تكونوا إنشاديين بحق، و لتثقيفكم، فالإنشاد ما أضحى كما كان، لقد تغير كل شيء يا سيدي، زال كل ما كان عالقا من أوهام الماضي، ذابت الأفكار الرثة البالية، مشكلة العالم الآن هي هل تعلم أم لم تعلم ؟، ثم هل عملت بما عرفت أم لم تعمل ؟، كل ما في هذا الوجود قائم على العلم، مرتكز على العلماء الذين باستطاعتهم حفظ الوجود إلى غاية يوم القيامة.

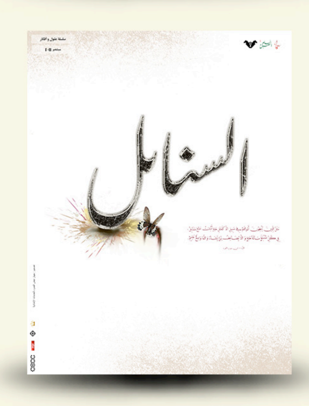
يا سيدي ... لقد انتهى زمن المعجزات منذ أمد بعيد، فكيف نكلّم من كان في المهد صبيّا ؟؟؟.





● من المفروض أن يكون العنوان خير دليل على المضمون، فإذا شئنا أن نوضح أكثر قلنا أنه مساحة حقيقة تعرف المهتمين بما يدور في مجال الإعلام الإنشادي، و خاصة أمام تطور العالم و نظرة الأهميّة التي بدأ يوليها للاتصال و التّواصل من أجل إنشاء الدولة العالميّة الواحدة.

كتاب " السنابل "



● أكثر من 100 مقالة دفعة واحدة بمواضيع مختلفة، كتاب يشبه أجزاء مرايا إنشادية العشرة، و لكن هذه المرة في جزء واحد وحيد، قد يحسبها البعض مغامرة كونها ألقت بكل الحمولة دفقة واحدة، إلا أن الفترة الراهنة تختلف قليلا عن الفترة السابقة.

كتاب " المنظار في النقد الإنشادي "



● رؤية موضوعية إلى النقد الإنشادي، موجهة إلى الجمهور و إلى الذين يجب أن يبرزوا كنقاد من أصحاب الاختصاص، كل ما قد يجول في الأذهان من تساؤلات حول هذا الميدان الذي لا تكفي كلمة مهم للتعبير عنه كاملا، هو مدخل يفتح الباب فقط لتكون أنت و أنتِ بالداخل.

كتاب " مرايا إنشادية "



● ربما تكون قد اطلعت على هذه المقالات من قبل، هي الآن في كتاب واحد بعدما نشرت من قبل عند صدورها في 10 أجزاء، حرصا على المنفعة العامة لكل إنشادي، أو حتى من الجمهور، فإن لم تنل شيئا من المسك؛ هل تضيرك رائحته الزكية ؟، لتطالع على الأقل 330 مقالة في مواضيع متشعبة لا تخرج عن المربع الإنشادي، فقد يأتي إلى ذهنك أن بعضها خارجة عن الجسم، كلا ... كلها في الإنشاد، المشكلة أن فن الإنشاد لديك مفهوم ضيق المساحة، فهلا خرجت من الزجاجة من فضلك ؟؟؟.